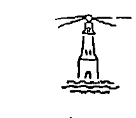
عيسى إسكندر المعلوف

المؤرخ الموسوعى الأديب

بقلم: البدوى الملثم



دار المعارف بمصر

عيسى إسكندر المعلوف

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .



عيسى إسكندر المعلوف

١٨٦٩ – ١٩٥٦

(آثاره[١]) تُنبيك عن أخباره   حتى كأنك بالعيــان تراهُ

تالله لا يسخو الزمان بمثلــه   أبداً ولا يرعى العلومَ سواهُ

---

(١) المجلة التى أصدرها الفقيد (١٩١١ – ١٩١٤) باسم (الآثار)

الإهداء !

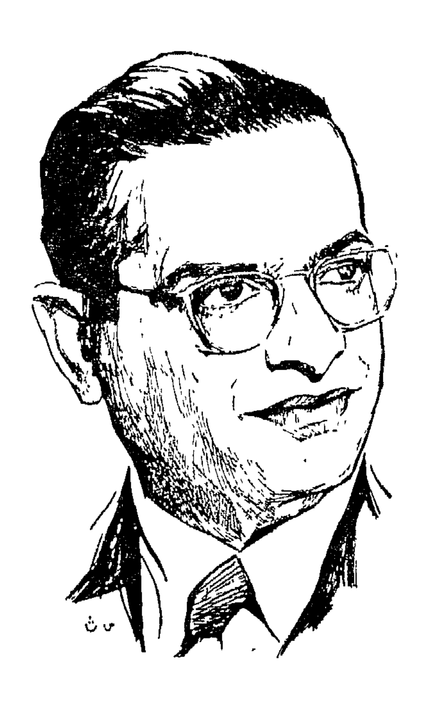
إلى « شاعر عبقر »

الأستاذ شفيق معلوف ،

اعتزازاً بخلقه

وزهواً بأدبه !

(عمان – الأردن) « البدوي الملثم »



الأستاذ شفيق معلوف

المقدمة الأولى

لعام ١٩٣٩

بقلم

الكاتب العربى الكبير

الأستاذ عجاج نويهض



أخذ هذا العصر فى العالم العربى يشبه كثيراً عصرَ المأمون العباسى ، مع اختلاف الحالة السياسية ومبلغ الاستقلال بحوزة الديار ، فى ازدهار العلم وذيوعه وانبثاثه فى الآفاق ، وتألق النوابغ الفحول والجهابذة والأئمة فى مختلف أبواب العلوم والفنون وما إليها من حكمة وفلسفة ، وتمحيص للفكر البشرى الذى انتهت إليه الحضارة المعاصرة الجبَّارة ، أمّ الجبروت كل شىء ، أمّ أرقى الدساتير

السياسية الملوّنة والديموقراطية المنوّعة ، والدكتاتورية الموحدة ، كما هي أمّ كل جديد من الحديد والنار والكيمياء والكهرباء !

ولكن هذا العصر لا يشبه عصر المأمون في ناحية أخرى لم تكن تفهم أو تعرف أو يحلم بها من قبل ، وهي التي تُبين لنا في القرن العشرين كيف تُبنى الدولة ، وبماذا تختلف في أهم صفاتها وطريقة تركيبها عن دولة الماضي . إذ ليس في العصور الخوالي عصر كان طرفه الأول قائماً على فلسفة الهند مشخصة بزاهد ناحل كالمهاتما غاندي ، وله مذهبه وعقيدته في الاعتزال والصمت وقراع السلطة السياسية بالمقاومة السلبية التي تجتنب إراقة الدماء ، سلاحه « المغزل » ومصنعه الحربي « ضرع العنزة » ، والطرف الآخر من ذلك العصر ممثلا بستالين وتشمبرلين ودلاديه وهتلر وموسوليني وفرانكو ، وبين هؤلاء وهؤلاء خلفاء أديسون وماركوني ، وكثير من أدوات الزينة والزخرف ، كعصبة الأمم ومؤتمرات المائدة المستديرة ، والطائرة والمدرعة ، والغاز السام ، والكمامة الواقية . . . !

* * *

غير أن العربي وهو يشير إلى الشبه العلمي بين عصر المأمون وعصرنا الحالي ، يعتزّ اعتزاز المفاخرة والمباهاة ، ويشعر بشيء كأنه موجة تيّار كهربائي تجري في عروقه ، عندما يسمع بذكر الأمهات المباركات من دمشق وبغداد والقاهرة ، فضلاً عن مكة المكرمة وغيرها من الحواضر ، مقروناً بذكر الروافد الأخرى كالقدس وعمان وبيروت ، إلى عشرات

المدن والثغور فى الرقعة العربية ، ويحس حوافز العصبية القومية تعتلج فى قلبه ، يقتدح زنادها لأقل عارض من الحرارة ، حتى ولو كان ذلك فى سياق خبر نشرته الصحف السيّارة ، أو نقلته الشركات البرقية ، أو أطلقه هذا الرأس الملثم ، المذياع العجيب ، وبثّه فى طبقات الأثير حول الكرة الأرضية ، كما يفعل كل يوم .

* * *

فالإنكليزى ، مثلاً ، على ضخامة ملكه وترامى أطراف إمبراطوريته ، والفرنسى ، والألمانى ، واليابانى ، والطليانى ، وما لهم من سؤدد منيع ، ليس لأحدهم على ما أعتقد ، من المجال الرحب فى بَعْث مجده القومى التاريخى ، ونشره من مطاوى حقبه ، ما لهذا العربى النجيب ، وارث حضارة الأقدمين ، ومنشئ حضارته التى عُرفت به وباسمه ، المتقلب — بعد الجزيرة — فى رقعة الشام والعراق وسواحل البحر ، وأعالىَ الجبال ، من الموصل إلى شواطئ البحر الأبيض ، ومن الإسكندرونة إلى عدن ، منذ مئات السنين قبل الإسلام وبعده ، إذْ لو جاء كل بنى الأقوام اليوم بحساب ماضيهم وتراثهم ، ومُزج ما جاءوا به بعضه ببعض ثم وُزّع ذلك حصصاً وسهاماً على نسبة فى الأمم والشعوب ، لخرج العربى صاحب الحظ الأوفر والشقص [1] الأكبر ، فلماذا لا تغمر موجة العزّة حواسه

---

(١) الشقص : النصيب ، السهم .

ومشاعره ، إذا ما استغرق فى عَرْض هذه الذكريات المثيرة المشجية طرفة عين ؟

* * *

إنى لست وأنا أكتب هذه المقدمة ، فى صدد وصف الأمة العربية فى مناحى نهضتها الحاضرة ، وإجراء القياس بين حاضرها وماضيها ؛ ولكنى أرغب فى أن أقول بإيجاز ما أشبه هذا العصر الذى تتمشّى عوامل الرقى العلمى فى كل ناحية من نواحيه ، بعصر المأمون ، مستثنياً الفرق من الناحية السياسية .

أما فى التقارب والتدانى والالتقاء ، فتكاد الأمة العربية اليوم ، بفضل ما يُسمَّى بـ «طرق المواصلات» البريدية والجوية والأميرية ، تمحو من المعجمات مادة « بُعد الدار وشطّ المزار » ، وكيف لا تمحوها وكل مساء يتحلّق الرهط حول « المذياع » فى كل مكان فيسمعون : « هنا بغداد » و « هنا القاهرة » و « هنا القدس » و « هنا بيروت» !

* * *

ومن بناة نهضة العرب اليوم والرافعين أعمدتها ، جيش من العلماء الذين هم بين كتبهم وخزاناتهم أعزّ من القواد بين جنودهم فى أمنع حصونهم ، والذين يعتقدون بأن « حبّ الوطن من الإيمان » ، وأن هذا الوطن إنما يُبنى على المكاتب والكتائب ، وأن العلم إنْ لم يخدم العَلَم ثم الأمم ، كان كالطعام الذى لا يُشتهى ، ولو كان بالنفس إليه حاجة !

و «العلماء» ، كلمة من أشرف الكلم التى رصّعت الحضارة العربية بأغلى الجواهر ، ولهذه الكلمة معنى سلفى ومعنى عصرى ، وإنى عند الاختيار والتعيين أتعلّق بالأول ، ولا أرى حاجة إلى تعريفه بحدود للقارئ ، وإنما أرجو منه شيئاً يسيراً وهو أن يميّز بين «العلماء» بمعناها القديم ، ومعنى «العالم» اليوم بقوانين هذا العصر وسننه !

ذلك على الجملة ، أن المعنى القديم له صورة خاصة ، ومميزات نوعية قائمة بنفسها ، تجعل من عالم عصر المأمون ، مثلاً ، «عالَماً صغيراً» أو «دويلة» أو «موسوعة علوم» ، والذين غذّوا الحضارة العربية بنتاج قرائحهم وعقولهم ، هم هؤلاء «العلماء» .

أولا تذكر الحديث الشريف : «العلماء ورَثَة الأنبياء» و «يوزنُ يوم القيامة مدادُ العلماء بدم الشهداء» .

ومنهم لم يخلُ عصر ولا مصر ، ولكنهم كانوا يقلّون ويكثرون ، شأنهم شأن الدولة ، ضخامة وانكماشاً ، وانبساطاً وتدلياً .

* * *

ثم إن هؤلاء العلماء على أنواع متعددة ، كأنواع العلوم وأبوابها ومذاهبها وتقاسيمها ، وقد يكون الواحد منهم حبراً بحراً فى علم واحد ، أو جملة علوم ، تقاربت أو تباعدت فى موضوعاتها .

ولما جاء العصر الحديث بآياته وعجائبه ، وثوراته وانقلاباته ، ونظم العلوم كلها فى سلك جديد ، توزعت هذه العلوم فى مختلف أنحاء

المجتمع ، وتعلقت بها الوظائف وارتبطت المعايش وأبواب الرزق المنظمة ، لا فى نطاق الدولة وحدها ، بل أيضاً فى الميادين الحرّة ، وما تنطوى عليه هذه الميادين من صناعة وتجارة واقتصاد وزراعة وأداة وآلة ، ومعهد ومعمل ومصنع ، مما لم يعرف له مثيل فى الزمن الغابر !

فعندما تذكر « العلماء » ، علماء حضارة الرشيد والمأمون ، وعلماء حضارة العصر ، فاذكر الفرق بينهما ، ولكل فضله وميزاته !

* * *

وقبل أن يشتهر علماء فرنسة فى القرن الثامن عشر بتلك الميزة التى اتصفوا بها ، وهى التضلع من علوم مختلفة والمشاركات فى ما لا حدّ له من أبوابها على ما أودعوه « دائرة المعارف الفرنسية » ولذلك سموا بـ « الإنسكلوبيديين » بزعامة « ديدرو Diderot » و « دلمبار D'alembert » ، كانت الحضارة العربية قبل ذلك بألف سنة قد جعلت تنجب هذا الطراز من العلماء فى كل حاضرة وصقع ومصر — وما « إخوان الصفاء » إلا مثلا يسيراً من هؤلاء — من الهند إلى غربى آسية ، فمصر فسائر المغرب الأوسط فالمغرب الأقصى ، المعروف كله اليوم بالمغرب العربى ، فالأندلس فجنوب أوربة ، حتى لا تكاد تحصى مدينة كبيرة أو صغيرة فى هذه الأرجاء المتماسك بعضها ببعض فى البسيط العربى الإسلامى فى القارات الثلاث ، إلا وينسب إليها العلماء الذين اجترحوا العجائب والغرائب ، ولست أعنى بـ « العالم القديم » إلاّ الذى صنع بعلمه شيئاً خالداً فى باب

من أبواب العلم ، وكم من مئات صنعوا هذا فى علوم عديدة !

* * *

وأرانى أقبلتُ على بيت القصيد فى هذه المقدمة : فإن العلامة عيسى إسكندر المعلوف الذى وضع هذا الكتاب فى شأنه ، هو من علماء الأمة العربية فى هذا العصر ، على طراز العلماء الأولين السابقين ، الذين من ثمرات عقولهم نسجت الحضارة العربية العلمية خيوطها الذهبية عصراً فعصراً ، فكان مجد العرب الخالد ،

هو اليوم من مقدّمى مشيخة العلم العربى « الإنسكلوبيديين » أو « الموسوعيين » ولا جدال ،

هو حلقة من سلسلة فريدة نادرة ، أصبح رجالها أفراداً وآحاداً ، غير أن الفرد من هؤلاء يكوّن « عالماً صغيراً » بنفسه ، أو « دويلة » أو « موسوعة علوم » تامة الأجزاء ، من الألف إلى الياء !

يتحدّر من أسرة عربية محضة العروبة ، غسّانية الأرومة ، منشؤها الأول حوران والشام وبردى ، ثم أخذت عروق منها وأصول فى النزوح والنزول والاستيطان حتى هبط نفر عزيز منها زحلة والبردونى ، ولا يزال « آل المعلوف » كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء !

* * *

ولماذا لا أستقرض بعض تعابير واصطلاحات دارجة فى هذا العصر الحديث ، لأصف « المعلوف » بقية السلف المأمونى القديم ؟

فهو يحمل فى هذا العصر ، عصر « الفيزا » و « جواز السفر » ، أجوزة « ثلاثة » لكل واحد منها خصائصه وميزاته :

فالجواز الأول :

تقرأ فيه أن العلامة المعلوف هو صاحب المكانة العلمية التى جعل خلال خمسة عقود مطّردة يجتاز بها بلاد الله ، قطراً بعد قطر ، وإقليماً بعد إقليم ، حتى صار أفقه الذى يسبح فيه لا أفق زحلة ولبنان وسورية ، بل أفق العالم العربى الفسيح ، يضاف إليه عالـَم « المهجر » الذى لم يكن يذكر عصر المأمون . فسقطت الحجة « الإقليمية » ، وانهارت فى نهر البردونى — على مائه العذب السلسبيل النمير — الدعوى « القطرية » ، من أن المعلوف هو لزحلة وما جاورها وجيرتها الأقربين ، ولو امتدّ هذا من « طورس » إلى « رفح » ، وما هو إلا للعرب كافة ، فى القاصية والدانية ، وما هو إلا « للضاد » فى مختلف الرقعة والبلاد .

والجواز الثانى :

ينبئك أن المعلوف ، على وداعته العلمية التى فُطر عليها وحبّه الخير المحض للناس ، قد رماهم بمعضلة كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ؟! وما هذا الجواز الثانى « فى جيبه » إلا إشارة إلى أن هذه المعضلة مستعصية ، عسيرة الحلّ . ومن استطاع أن يحلّها فليتقدم . ذلك أن المعلوف فى عديد

العلوم التى تناولها وحذقها ، وقلّبها ونخّلها، وارتشفها وامتصّها ، أمسى — باصطلاح الطبيعيات— كالجسم الموشور ، له جهات بلّورية متعدّدة متساوية القياس ، فقل لى ، والحالة هذه ، بأيّها تبتدئ ؟ وبأيها تنتهى يا ترى ؟ !

نعم هو يتّشح بثوب المؤرخ الثقة فوق جميع أوشحته العلمية ، ولكن مع هذا :

هو فى العربية ابن بجدتها يُشار إليه بالبنان .

وهو فى الكتابة والتأليف لا يشكو قلمه عطشاً ولا قرطاسه جفافاً ، حتى إذا جئت تعدّد كتبه وأسفاره ورسائله ، المطبوع من كل هذا والذى لم يبرح مخطوطاً (كما سترى فى هذا الكتاب) ومحاضراته وخطبه وديوانه الشعرى ، أخذك منه العجب ، كما حصل للمتقدمين ، وهو أنك لا تكاد تؤمن وتصدّق أن العمر مهما طال وشُغل بالعمل دأباً واطراداً، يتسع لمثل هذا الإنتاج الضخم ، الذى يسميه علماء الاقتصاد « بالإنتاج الكبير » ، وأى إنتاج ضخم كبير هذا — أعجوبة فحول العلماء لا تزال تتكرر !

وهو صحافى قديم ، ومجلدات « الآثار » ماثلة فى المكاتب حيّة ناطقة !

وهو فى الشعر من مالكى زمامه ، وكفاه أنه منجب فلذة كبده « فوزى » الذى جابت شهرته الشعرية البلاد ، وبذبوله قبل الأوان خسرت

دولة الشعر العربى المعاصر ملهماً ارتفع به الإبداع إلى مستوى الطبقة العالية بسنوات ، فلو امتدّ به الأجل ، لأتى بالعجب فوق ما ترك وخلّف !

فما أشبه المعلوف وهذه معضلته ، بمعدن يستخرج منه الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، وكلما زاد عمقه انكشف عن طبقات معدنية جديدة ، غالية القيمة !

* * *

وإن طال الانتظار قليلاً ، فلست ناسياً « **الجواز الثالث** » !

غير أنه يوجز بعبارة ، وهو « بلغة القناصل » صالح لسفرات متعددة مدى العمر إلى « دولة المطابع » ! ولكن كتب المعلوف المخطوطة ، العديدة المعدّة للطبع ، والتى من عيونها « تاريخ الأسر الشرقية » الكبير الواسع ، وأعظم به من تاريخ ، لا تزال « حواجز الحدود » تعوقها عن ولوج دور الطباعة .

* * *

وبعد الانتهاء بالقارئ إلى هذه التخوم والحدود ، ولا مجاز لى بعدها إلى ما هو أبعد منها ، ولا زاد لى فى ما بقى من الدروب ، وليس بيدى شىء من « أجوزة سفر » المعلوف ، أحبّ القارئ أن يدنى أذنه « الصحيحة » منى ، لألقى فيها همساً :

ليس من خدمة تُسدى إلى العلم والعرب اليوم ، استثماراً لإنتاج المعلوف ، أفضل وأبرّ من أن يعصوصبَ صَحْبُ المعلوف حيث يريدون ،

ويؤلفوا لجنة خاصة منهم ، وكلهم لعمرى محب العلم والعرب والمعلوف ، تعنى بوضع مشروع يكفل طبع أمهات كتب هذا العلامة ، التى حوَتْ ذخيرة بحثه واستقصائه ، وطواها على ممحّصات آرائه ، ومما جلاه تحقيقه ، ورشحت به قريحته وما أبدع تقليد هذه البدعة فى تكريم العلماء كما يجرى عليه القوم فى الغرب !

فكتبٌ وذخائر وأعلاقٌ كهذه ، وسيمرّ بك تعدادها ، إن لم تخرج إلى الناس ، فكيف تقرّ عين المعلوف ؟ أوَ لا يكون البطء فى إخراجها جناية على العلم وظلماً « لورثة الأنبياء » ؟

عجاج نويهض

القدس

٧ ربيع الثانى ١٣٥٧

٢٧ أيار ١٩٣٩

رشحات قلم . . . !

لعام ١٩٣٩

في البسيط العربي اليوم حفنة طيبة الفوح ، معطرة الأرج ، من مشاهير الكتّاب وأعلام المعرفة الذين جاهدوا في سبيل (الضاد) وأقعدوها منازل الرفعة ، و بوّأوها صهوات المجد وهم يهتفون :

فإنّ (ليلى[1]) فتاة لا مثيل لها صيغت من الحسن شكلاً ما له ثان
إلى البداوة منسوبٌ منـــابتها وإن نميت فهل فخر كعدنان ؟
ألفاظها دُررٌ ، تركيبها صورٌ آياتها غررٌ ، في كل قرآن !

من عيوبنا نحن الشرقيين أننا نقوم متباطئين بأداء ما لتلك « الحفنة » المباركة من « ذمم » في الأعناق ، وكثيراً ما ضحّى رجالها الأعلام في سبيل (الضاد) ، وأمضوا سحابة العمر يصاولون الخصم ، ويحاولون من يرميها بالعقم !

ولعمر الحق ، بائسة هي الأمة التي لا تشعر بجهود جبابرتها إلا وهم في طريقهم إلى القبر . . . واكلة ذلك للتاريخ الذي يجلو صفحات

---

(١) من قصيدة للشاعر الشيخ قسطاكي الحمصي (١٨٥٨ — ١٩٤١) بعنوان (البدوية) نظمها رداً على طغمة من ضعاف النفوس الذين قاموا يدعون إلى استبدال اللغة الفرنسية باللغة العربية في دواوين حكومتي سورية ولبنان .

جهادهم ، ويعدّد مفاخرهم وأمجادهم ، وكل ما تُجزى به الأمة أديبها « حيًّا » قولها :

« لله درّه ، لا فُضّ فوه ! »

هم يقتلون اضطهاداً كل نابغة   حتى إذا مات أولوه النياشينا(١)

وهذا التقريع يذكرني ببيت للشيخ ناصيف اليازجي في (المقامة الحكمية) من كتابه (مجمع البحرين) هو :

لا يحمد القوم الفتى إلا متى   مات فيعطى حقه تحت الثرى !

ومن تلك « الحفنة » الشذية الفوح ، المعطرة الأرج ، الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ، شيخ مؤرخي العرب المعاصرين ، ووالد الشعراء النوابغ : « فوزي » و « شفيق » و « رياض » الذين فتحوا في أدبنا المعاصر فتحاً مبيناً ، وخدموا (الضاد) بنفحاتهم المجنحة ، ورفعوا من قدر أمتهم ، في عيون مفكري الغرب ، إلى أرفع عوالم المجد والفخار !

و (كتابي) هذا (فصول) حزمتها في مؤلف أزفّه إلى الشيخ الجليل المعلوف إقراراً بفضله واعترافاً بتفانيه في سبيل الأدب وخدمة التاريخ .

وإنْ أنسَ لا أنسى كلمة قالها الدكتور رئيف أبو اللمع في حفلة تأبين المرحوم الشاعر وديع عقل :

---

(١) من قصيدة للشاعر المرحوم قيصر معلوف ألقاها في حفلة استقبال جثمان فقيد الأدب العربي المرحوم فيلكس فارس (١٨٨٢ – ١٩٣٩) عند وصوله إلى (المريجات) بلبنان .

« إن زهرة واحدة تقدمها للأديب فى حياته ، لأفضل فى عينى من الإكليل الذى تضعه على قبره يوم وفاته ! » .

فليتقبل العلامة المعلوف هذه « الفصول » مشفوعة بتقدير واحترام ومحبّة .

الملثم البدوى

(عمان – الأردن)

١٩٣٩/٨/٣١

المقدمة الثانية
لعام ١٩٦٤

بقلم

الكاتب العربى الكبير

الأستاذ عجاج نويهض

مقدمة :

لرسالة فى شيخ العلماء وإمام المؤلفين والمحققين ، عيسى إسكندر المعلوف رحمه الله تعالى ، وضعت سنة ١٩٣٩ فى بيت المقدس ، تلبية لرغبة صديقى القديم الكاتب الأديب الأستاذ « البدوى الملثم » ، والأستاذ الإمام وقتئذ حىّ فى المتوسط من شيخوخته المباركة ، وها قد مضى على وضع تلك المقدمة ربع قرن ، فى خلاله كانت الحرب العالمية الثانية ، وتغيّر العالم ، وبالتالى فقدت العروبة والعلم الأستاذ المعلوف منذ سنين قليلة ، وتلك الرسالة التى وضعها فيه « البدوى الملثم » بقيت لأسباب قاهرة مخطوطةً حتى اليوم لم تنشر بالطبع ، والآن سنة ١٩٦٤ يريد « البدوى الملثم » وفقه الله وهو من أوفى الأوفياء لأستاذنا العلامة المعلوف ، أن ينشر كتابه ، ونعم ما يفعل ، فسألنى رأيى فى المقدمة فقلت له :

« شيء كتب سنة ١٩٣٩ حول مكانة الأستاذ الإمام في العلم والفضل ، وهو يومئذ سيد العلماء حيّ مبارك الحياة ، قد انقضت مناسبته فلا أرى ما كتب في هذا الباب سنة ١٩٣٩ يصلح ليفيه غرضه أو بعض غرضه سنة ١٩٦٤ ! » ..

وأضفت إلى هذا أن مكتبتي وجميع أوراقي كل هذا ذهب إلى اليهود في بيت المقدس سنة ١٩٤٨ فليس عندي أي أثر مما كتبت في ذلك الحين ، في الربيع من تلك السنة ، وهتلر في الذروة من صيحاته وبطشاته !

* * *

وكنت سنة ١٩٣٩ أسكن بيت المقدس ، و « البدوي الملثم » عمان ، وعلاّمة الوقت زحلة ، عروس لبنان ، وفي سنة ١٩٤٨ انتقلت إلى عمان وقد انهار ما انهار من فلسطين ، فبقيت في الأردن حتى أواخر ١٩٥٩ ثم انتقلت إلى لبنان . وكان « البدوي الملثم » قد أخبرني وأنا في عمان مجمل السبب في عدم نشر كتابه ، وأنه لم يزل مصمماً على ذلك وفاءً لبعض حق الأستاذ الإمام ، ولكن الكتاب قام بطواف واسع بين الأردن ومصر وسورية حتى حلب ، في قصة لذيذة لا أحسب « البدوي الملثم » إلا موجزها للقارئ على كل حال !

* * *

والآن يريد « البدوى الملثم » إعداد الرسالة للطبع ، أو تحقيق ما كان قد عزم عليه سنة ١٩٣٩ مع إبقاء تلك المقدمة على حالها ، ولكنه رأى أن يعيدها إلىّ لأعيد فيها نظرى ، فتفضّل بهذا وأرسلها إلىّ إلى لبنان من عمان ، وإذا بى أمام طريقين لا ثالث لهما :

فإما أن نغيّر المقدمة كلها ، وإما أن تبقى على حالها ، ولكن توضع أمامها كلمة جديدة تبيّن صفوة القصة .

فأما الوجه الأول فآتى فيه قليلة لأن الكلام على العلاّمة المعلوف اليوم ، وهو فى أعلى عليين ، يحتاج إلى تناول بنى المعلوف كلهم ، وهم ، بارك الله فى أرومتهم الغسّانية وفروعهم اللبنانية سلفاً وخلفاً ، عشيرة علم منبسطة الظل فى هذا العالم العربى ، ولا بدّ أن يتكلمّ فى هذه الناحية مؤلف الرسالة « البدوى الملثم » ، فبقى علىّ أن أختار الوجه الآخر ، وأرجو من القارئ أن يعتبر هذه التوطئة شيئاً من « تاريخ » المقدمة للرسالة الوافية التى ستكون فى يد القارئ سنة ١٩٦٤ إن شاء الله .

ولكن هناك شيئاً واحداً لا بأس أن أبيّنه ، مما أراه من مبرّر لإبقاء الكلام الأول على حاله ، وهو أن تكون لدى القارئ الكريم صورة ذهنية لتلميذ كان ينظر إلى الأستاذ العلاّمة بهذه العين وهو حىّ وارف الظلّ قبل ما يقرب من ربع قرن، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن خدمته الثقافات العلمية العربية ستين سنة خيراً أبديًّا .

* * *

أما صديقى القديم العهد « البدوى الملثم » ، وقد اختار لنفسه هذا اللقب المحبب منذ وقت طويل ، فما هو حقًّا بالملثم ، فوجهه سافر بالفضل فى عالم الكتابة والأدب والتأليف ، ولكنها حلاوة الاسم والمعنى والإشارة والشارة ، وعذوبة المغزى ، ورقة الدلالة . ففى لفظة « البدوى الملثم » من هذا مثل ما فى « وادى العقيق » و« المنحنى » و« الحجون » و « الصفا » و « الروضتين » و « عكاظ » و « المصلى » و « جرير » و « الأخطل » و « الفرزدق » و « رؤبة »و « الراعى »و « جميل » و « كثير » و « عمر » إلى ما لا نهاية له من الأسماء والكنى التى تعجّ بالخيال المتضوع بروائح العنبر والمسك . إلى مسافات بعيدة تعدّ بالقرون .

ولما تفضّل « البدوى الملثم » سنة ١٩٣٩ بأن سألنى أن أضع المقدمة ، لم يكن اختياره لى مبعثه أنه اختار أولى الأصدقاء ، وأصدقاؤه أرهاط فى كل حىّ فى الوطن والمهجر ، فما اختار فى رأيى إلا الضعيف ، ولكنه آثر أن يختصنى بأن أكون من الطائفين حول الأستاذ العالم العلامة ، فشكرت لصديقى إيثاره هذا ، ولو استطعت لنزعت منه اللثام وتبديت ، لأستر من حالى ، ولما رأيته سنة ١٩٦٤ كشأنه سنة ١٩٣٩ دخلت الهيكل كواحد من المصلين .

والرسالة الجديدة التى وضعها « البدوى الملثم » هى « إكليل غار» يوضع اليوم على قبر العلامة الثاوى فى زحلة ، تغمده الله تعالى برضوانه ، ونفع الأمة العربية بكتبه مخطوطها ومطبوعها ، وأبقى لنا آثاره ، وشدّ

عضدنا بأبنائه ، وكلهم أعلام فى الفكر والأدب . دعْ عنك « فوزى » الخالد فذكره جوّال فى الأرض . ولا أزيد على هذا « فالملثم » متناول جملة الكلام على بنى المعلوف الذين لم يبرحوا المصابيح المنيرة والسرج المضيئة فى كل هذه الجنبات من عالم العروبة !

ولا بدّ أن « الملثم » مخبر القارئ فى ما دعا إلى إرجاء طبع الرسالة نحو ربع قرن من الزمن ، ولكن هناك ناحية حرية بالذكر . وقد شغلت من الوقت بضع سنين . فبعد الحرب الثانية . وأنا وقتئذ فى عمان ، قام « الملثم » برحلة واسعة إلى أميركا الجنوبية (بعد ١٩٤٨) فى سبيل الدراسات المهجرية والوقوف عن كثب على أحوال المهاجرين ، حتى تمّ له وضع موسوعته الضخمة الفريدة فى بابها «الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية » فى جزأين كبيرين ، وانتهى من هذا سنة ١٩٥٧ وطوى هذه الموسوعة على أخبار المهاجرين ، وقد استقى كل شىء من ينبوعه ، مما أحدث أثراً فى هذا الأدب يبقى على الأيام ، ويسجل من المعالم ، ويقيّد من التفاصيل والأنباء ، ويثبت من الرسوم والصور ، ويورد من الأوصاف للشخصيات والشعراء والأدباء والصحافيين والمؤلفين وأرباب الأعمال والصناعات ، ومشروعات الخير والتهذيب من مدارس ومعاهد ومستشفيات وأندية ومؤسسات الاقتصاد والعمران كالمصارف والشركات ، مما يتجلّى به ما غرس الله فى المُهاجر أو المُغترِب من خلق الهمة والمطمح ، ونزعة حبّ

المساهمة فى إنشاء الحضارة وخدمة المجتمع . وفى هذا السبيل أنفق «البدوى الملثم » سنوات عديدة متتالية فى مواصلة أعمال ، وحلّ وترحال ، إلى أن تحقق له ما ابتغى من آمال ، وهذا شأن العاملين من الرجال ، ومن شاء أن يطلع على أخبار الهجرة والمهاجرين والاغتراب والمغتربين ، اطلاعاً واسعاً وثيقاً ، فقد أصبح هناك كتابان هما العمدة والسند ، هذا الكتاب « للبدوى الملثم » وكتاب «أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية» لجورج صيدح [1] .

* * *

أما الكلام فى فضل الموسوعى الأكبر ، وما كتب وطبع ، ونشر وأبقى ، ودوّن وخلّد ، فعائد إلى صاحب هذه الرسالة « البدوى الملثم » تلميذه الوفىّ وواضع هذا « الإكليل »على قبره« ، فله شكر القارئ أينما كان فى هذه الدنيا ، وبورك « الملثم »وما صنع نحو إسكندر العاوم ورأس بنى المعلوف فى هذا القرن ، المتضوّع ذكرهم فى لبنان من

(١) « الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية » هو على ما ترى من سعة وضخامة ، وكتاب « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » للشاعر الصداح ، والكاتب الوضاح الأستاذ جورج صيدح ، هما من خير ما كتب فى هذا الباب من أول تاريخ المهاجرة والاغتراب منذ بداية الربع الأخير من القرن الماضى إلى سنة ١٩٥٧ من هذا القرن ، وهذان الكتابان صدرا فى بيروت فى سنة واحدة ، أما كتاب « الملثم » فى طبعته الأولى ، وأما كتاب « صيدح » فى طبعته الثانية وهو سفر ضخم فى أكثر من ٦٠٠ صفحة .

غسان ، وكأن جوقة الملائكة كانت تنشد يوم اختار الله تعالى الإمام عيسى إلى جواره :

« وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا » .

عجاج نويهض

رأس المتن ، لبنان

١٩٦٤/١/٢١

رشحات قلم . . . !
لعام ١٩٦٤

تمنيت لو أن هذا الكتاب أخذ طريقه إلى المطبعة في عام ١٩٣٩ واستقرّ في يد الموسوعي الكبير عيسى إسكندر المعلوف قبل أن يلحق بربه!

لكن جدّ ما ليس في الحسبان باندلاع نار الحرب الثانية ، فسادَ العالمَ الذعرُ ، وتولاهم الهلع ، فشلّ دولاب المطبعة العربية ، ونهض عامل مفاجئ كان سبباً هاماً في تأخر صدور الكتاب !

ففي عام ١٩٤٠ والحرب الثانية مشتعلة اللظى ، حملتُ الكتاب إلى القاهرة لنشره (فصولا) في « المقتطف » وحزم بضع مئات من (تجاربه) في كتاب أقدمه هديةً متواضعة لإمام المحققين العلامة المعلوف .

وتركت الكتاب في دار « المقتطف » وعدت إلى القدس المحتلة ، دارة عملي ، فهبط الكنانة الأستاذ عبد الله حلاق صاحب مجلة « الضاد » الحلبية ورأى مخطوطي قيد الصف فحمله إلى الشهباء لنشره على مطابع مجلته هديةً لمشتركيها ، لكن جدّت ظروف قاهرة غلّت يده عن الشروع في المشروع ، وآلت بالكتاب إلى الضياع بين ملفات أوراقه !

وفي خريف عام ١٩٦٣ تسلمت ، وأنا في طريقي إلى زحلة للسلام

على الأستاذ شفيق معلوف . رسالة من شقيقه الأستاذ رياض معلوف جاء فيها قوله : « وماذا فعلت الأيام يا "ملثم" بكتابك عن والدنا المرحوم ؟ » .

فسّرت هذا التساؤل « اتهاماً » حزّ فى نفسى فقصدت الشهباء على عجل وكاشفت الأستاذ الحلاق بالسرّ ... وهنا ولجنا مكتبته وشرعنا فى البحث والتنقيب ، وبعد جهد بذلناه عثرنا على أصول الكتاب . فهلّلنا لهذه الخاتمة ، واستأنفت مسيرى إلى (جارة الوادى) وأرض العنب معانقاً « شفيقاً » ، مدّ الله بعمره ، ومتحدّياً « رياضاً » سامحه الله . وهامساً فى أذنه :

« إننى شبلُ أبٍ ، يرحمه الله ، إذا وعد وفّى ، وإذا قال أنجز ! »

أبٌ[1] كان للمولى سناء ورفعـة   وللطارق السارى قرًى غير فاتر

وها هو ذا الكتاب (التائه) بين يدى القارئ الكريم ، ورجائى أن ترضى عنه روح فقيدنا العلامة المعلوف ، وتتقبله (هدية) متواضعة ، اعترافاً بخدمات أسداها للعربية وتاريخها ، واعتزازاً بنوابغ أنجبهم لدولة الشعر العربى المعاصر .



(عمان – الأردن)
١٩٦٤/١/١

(١) هذا البيت من قصيدة عاسرة للبلى الأخيلية فى تعداد صفات نوبة بن الحمير .

المدخل . . . !

جاذبت المرحوم عيسى إسكندر المعلوف حبل المراسلة قرابة ربع قرن، وتضاعف حبي لهذا الشيخ الجليل ونما بعد وفاة نجله « فوزى» فى البرازيل بعيداً عن والدين فجيعين !

وفى عام ١٩٣٥ جئت لبنان مصطافاً فسرتُ إلى زحلة خفيفاً طائراً ، ودخلتها فى جلال من فتنة الطبيعة ، وجلال من فتنة الوادى ، وجلال ما اشتهر عن أهلها من سخاء يد ، وكرم نفس ، وسماحة خلق !

ويممت دارة المعلوف أو قلْ « قاعة التاريخ » فرأيت فى زاوية من زواياها شيخاً جليلاً اعتمر طاقية سوداء ،فسرتُ للسلام عليه وألفيته شيخاً مهيب الهيكل والطلعة ، مهيب المحضر والحديث ، مهيب الصوت والنبرة ، وقد ذكّرنى هيكله بقول « أبى تمام » :

ماذا تقولين فى «شيخ »« فتًى »أبداً وهل يكون شبابٌ غير فتيان ؟!

وأخذ شيخ بنى معلوف يتحدّث إلى زوّاره بخفوت صوت ونعومة نبرة ، ويرسل الكلام فى جمل متساوقة تكاد تكون أوزاناً بنفسها ، ويأتيك بتلك الموسيقى التى تنحدرُ إلى سمعك فى عذوبة جرْس وروعة نغم، بأطايب الحديث منظوماً ومنثوراً ، وهنا لمع فى خاطرى طيف الكهان

العرب قبل الإسلام وعلى رأسهم « سطيح »[١] الذى اشتهر أمره فى متاهات الجزيرة ، وكان الملوك والأمراء ينهدون إليه متسائلين عن المستقبل وحوادثه ، فكان يحدّد لهم وقائعه ، ويكشف لهم فى صيف كل عام ، عن حوادث جسام ، لا تلبث أن تقع فى زمانها ومكانها !

وتوالتْ زوراتى للعلامة العالم إلى أن لحق بربه ، ومن الإنصاف للتاريخ أن أقول إنه كان تاريخاً حافلا فى سنّ كبيرة ، وشأناً جليلا فى نفس جليلة ، وقد حباه المولى حظًّا موفوراً من طيب المحتد وسعة العلم ونضوج الخبرة واتزان التفكير ، أضفْ إلى ذلك حلاوة الحديث مشفوعة بعذوبة نفس تطامن من تهيبك حين تجلس إليه ، فيروعك منه ذلك الجلال الذى يحفّ به ، حتى إذا بادأك بحديثه اطمأنت نفسك إليه ، ثم ما عتمتَ أن شعرت بالتقرب منه ، والاستئناس به ، وارتحت إلى ذلك الجلال المؤنس والمهابة الوديعة ، وخرجت من مجلسه وأنت جد مشوق إلى العودة لذلك الينبوع الثرّ ، والتزوّد من حكم وطرائف شيخ جليل زانه الله بضخامة صيت ، وذيوع سمعة ، لا يستند فيهما إلى منصب زائل ، أو جاهٍ زائف ، وإنما جلال الشيخ ، شهد الله ، من جلال نفسه ، ورفيع مكانته القائمة على قلوب تعتز بعلمه ، وتعشق مبادئه ومُثله العليا !

---

(١) كان الكاهن « سطيح » ، كما تروى كتب الأدب وأساطير الأولين ، يدرج كما يدرج الثوب ، لاعظم فيه إلا الجمجمة ، وكان وجهه فى صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وقد ولد والكاهن « دشق بن أنمار بن نزار» فى يوم واحد ، وكان كل منهما أشبه بالآخر فى الكشف عن أنباء الغيب .

وأيقظت زوراتى المتتالية لشيخ بنى معلوف مشاعر حبيبة فى نفسى ، فنشطت إلى كتابة هذه الفصول عن مفخرة من مفاخر العرب ، وشامة من شامات تاريخهم . إنصافاً للعلم وأحباره ، وتقديراً لعملاق خدم (الضاد) سبعة عقود ونيف ، بذل خلالها الكثير ، وضحى فى سبيلها بالكثير . وسعى ونسوره سعياً حثيثاً لإعلاء كلمتها ، وزوّدوا خزانتها بروائع أقلامهم ، ونفائس نتاجهم الخالد !

الفصل الأول

بنو المعلوف أحفاد الغساسنة

تمهيد :

بعد سيل[1] العرم اندفعت القبائل العربية من قاب اليمن وبلغت زحوفها سورية ، فأعجزت قياصرة الرومان ، حكامها فى الشرق ولم يقووا على دفعها حتى اتخذوا الغساسنة عمالاً لهم ، فنشأ من هؤلاء ملوك تنصّروا فضبطوا قسماً كبيراً من تلك الجهات ، ووقفوا فى وجه العائثين بالبلاد فساداً ، ومصّروا المدن والقرى كبصرى (قاعده باشان) والجابية (قاعدة الجولان) ودامة العليا (قاعدة اللجاة) وغيرها ، إلى أن جاء الفتح الإسلامى فاختلطت هذه القبائل النصرانية بالنصارى المقيمين فى ضواحى الشام، لكن عنصرهم العربى ظلّ فى البطون التى غادر بعضها الشرق ملتجئاً إلى القياصرة ، والبعض أسلم والبعض الآخر بقى إلى أن رحل قسم منهم إلى غربى سورية وشماليها ، واتصلوا بلبنان فى أزمنة مختلفة !

---

(١) لخصنا هذا الفصل من كتاب (دوانى القطوف فى تاريخ بنى المعلوف) .

فى عهد الخلفاء الراشدين :

وفى عهد الخلفاء الراشدين تركوا الخراج للغساسنة وجنّدوا منهم جنوداً، ولا سيما من كان من الغساسنة فى (بصرى) و (دامة العليا) وتركوا لقبهم الغسانى ، وسُمِّىَ سكان (دامة العليا) بـ (بنى المعيوف)[1] ، ومثلهم فعل الأمويون ؛ لأن قبائل غسان أسهمت فى المواقع العربية مثل موقعة مرج راهط إذْ أقبل عبّاد بن يزيد الغسانى من حوران فى ألف من مواليه ، وانتصرت لمروان بن الحكم الأموى (٦٥ هـ ـ ٦٨٤ م) ، ولعبد الملك بن مروان ، فقد كانت معظم جيوشه من الغساسنة ، وفى ذلك أنشد « الأخطل » :

مقـــدّماً مئتى ألفٍ لمنزلـــه ما إن رأى مثلهم جنّ ولا بشرُ

فى العهد الأموى :

وفى العهد الأموى تمتع الغساسنة بامتيازات ، لكنّ العباسيين ألغوها زعماً منهم أنّ الغساسنة كانوا ظهراء الأمويين فغيّر سكان (دامة العليا) لقبهم (المعيوف) بـ (المعلوف) لقرب الصيغة .

وكان بنو المعلوف فى (دامة العليا) ذوى ثراء طائل وجاه عريض

---

(١) « بنو المعيوف » تحريف « بنو المعلوف » وفى اللغة العامية يقال : « هو معيوف من الشىء » أى « معنى منه » .

فاتخذوها حصناً حصيناً ، لجودة موقعها ومناعة أبنيتها ووفرة أرضها ، وكانت صبغتهم هناك يمنية ، ولاشتهارهم بثروتهم ونفوذهم هناك ازداد جيرانهم القيسيون حسداً ، لا سيما البدو الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم صيفاً فى اللجاة فقاتلوهم مراراً ، وجرت الدماء بينهم سيولاً واستفحل العداء بين (بنى المعلوف) والعرب الفحيليين .

وصرّح حجة المؤرخين المرحوم البطريرك بولس مسعد (١٨٠٦ — ١٨٩٠) المشهور بمعارفه التاريخية ، ولا سيما ما يتعلق بالأسر اللبنانية ، بأن بنى معلوف متحدرون من غسان .

خصائص بنى المعلوف :

وإذا نظرت إلى بنى معلوف رأيت من خصائصهم استدارة القحف ، وشمم الأنف ، وانبساط الجبهة وارتفاعها مع عدم البروز ، وفلفلة الشعر أحياناً وسمرة اللون ووسامة القسمات وتساوق الملامح وسواد العينين ونجلهما وسواد الشعر ، ونحو ذلك مما هو من خصائص العرب .

واشتهر بنو المعلوف بالحدة والنزق ،والأنفة والكرم ،وطيب القلب والشجاعة ،والإقدام وقرض الشعر ، والقناعة بالكفاف والمعيشة فى القرى ، وإيثارها على المدن والضوضاء .

بقاؤهم فى حوران :

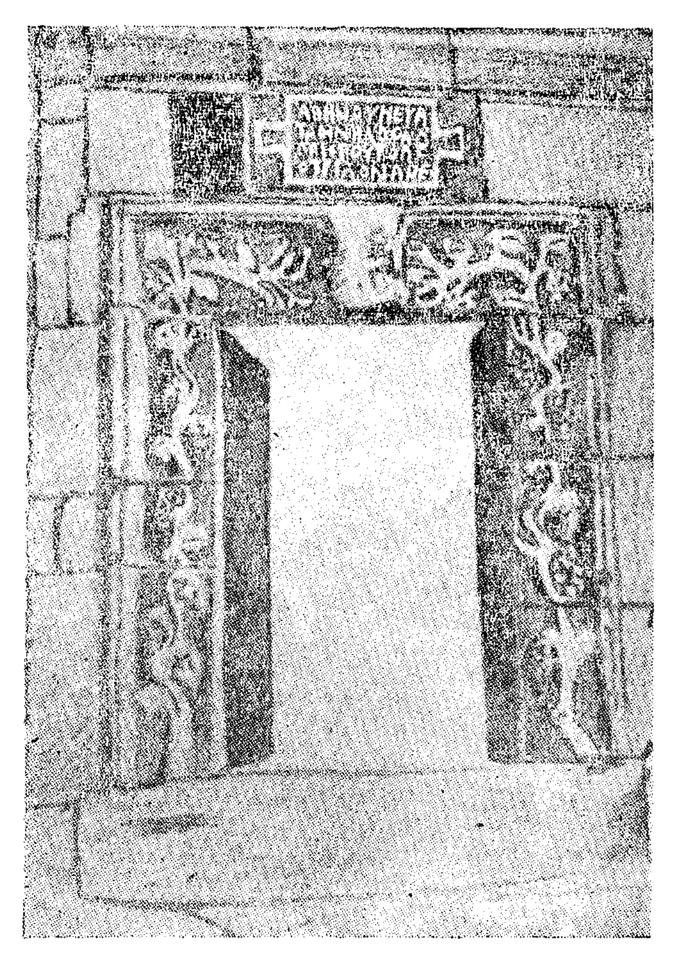
وبقى بنو المعلوف . أحفاد الغساسنة . فى حوران خاضعين للفاتحين . ونائلين منهم التفاتاً ومكانة لما رأوا فيهم من المبادئ القويمة والمحافظة على الجنسية ، وكانوا يشغلون كثيراً من المدن القديمة كالبلقاء والجابية وبصرى ودامة العليا وأذرع وغيرها ، وتفرّق شملهم بزمن الفتح وبعد الدولة العباسية ، لكن قسماً منهم أقطع اللجاة التى كانت قاعدتها « دامة العليا » فصولحوا على ترك الجزية وسموا « بنى المعيوف » ولا سيما أن جدهم ناصرَ الأوس والخزرج . الذين منهم الأنصار ، ثم أبدل اسمهم بعد أخذ الجزية منهم بـ « المعلوف » . وكانوا هناك ينتمون إلى ثلاثة أصول :

الأول : أصل إبراهيم المعلوف الغسانى جد الأسرة المعلوفية .

الثانى : أصل نسيبه جرجس .

الثالث : أصل إلياس .

وهؤلاء الثلاثة من سلالة عيسى بن موسى بن إبراهيم بن جرجس ابن إلياس بن مدلج بن عبد المنعم بن عدى المتصل نسبه بأبى بجيلة أو (جبيلة) الغسانى ناصر الأوس والخزرج ، ونشأ إبراهيم ، كبير تلك الفروع ، فى « دامة العليا » وذاع صيته فى تلك الربوع وكُنى



صورة بوابة « دامة العليا » فى حوران ، وهى مسقط رأس الأسرة المعلوفية قديماً .
(من محفوظات « الخزانة المعلوفية » بزحلة)

بـ « أبي راجح » ، لرجحان عقله وأصالة رأيه ، وكان وافر الثروة ، نافذ الكلمة ، كثير المواشي ، مشهوراً بكرمه ، واتخذ هيكل « مينرفا » ، الماثلة أطلاله فى تلك القرية إلى عهدنا الحاضر ، (مضافة) وغدت تلك البلدة المنيعة حصناً لمن يلتجئ إليها ، وسكانها يدافعون عن جيرانهم النازلين فى اللجاة من الغسانيين وسواهم ، فتأيدت فيها كلمتهم ، واشتهرت سطوتهم ، وتوالدوا وتكاثروا ، وألفوا عشيرة كبيرة فحسدهم الجيران من العرب وغيرهم ولا سيما الفحيليون من العشائر التى كانت تخيّم فى اللجاة ؛ وذلك لثروتهم وقوتهم ، والثروة والقوة تثيران الحسد ولا تُصانان إلا بحدّ السيف !

ولما كثرت بينهم الوقائع وسفك الدماء ، وكانت العصبية اليمنية والقيسية تزيد نار الحقد ضراماً ، وعرى الوحدة انفصاماً ، دافعوا عن أنفسهم بسيوفهم ، واشتهروا ببأسهم وسطوتهم !

ما جرى لبنى معلوف من حوادث :

كانت حوران تابعة لدمشق فى جميع الأحوال التى تقلبت عليها ، ونالت عشائرها لدى بعض حكامها منزلة وكانت قلعة صرخد فيها حصينة نازلها الصليبيون ، وملكها الأيوبيون ، واستولى عليها الملك الظاهر بيبرس واعتزل فيها الملك العادل زين الدين لما خلعه نائبه فى مصر ، فكان بنو المعلوف مثل غيرهم ، يتقرّبون من الحكام لدعم نفوذهم ؛ إلى أن حدثت

الاضطرابات الأخيرة فى زمن دولة الشراكسة المصريين وكثرت القلاقل ، واضطرب حبل السكان ، وتفرّقت كلمتهم ، وعاث البدو فى البلاد فساداً .

وكان فى عشيرة أبى راجح إبراهيم المعلوف ، ابنة جميلة الطلعة اسمها « لطيفة »،وذات يوم خرجت مع صواحبها إلى بئر فى أسفل بلدتها « دامة العليا » ، وكانت المياه شحيحة فيها وفى ما جاورها من القرى ما خلا آباراً فى« دامة العليا » احتفرها بنو المعلوف لهم ولمواشيهم الوافرة ، فكان جيرانهم يستقون منها .

يا أبنة بائع السمن ! :

وبينما « لطيفة » تسرّح الطرف بالمناظر الجميلة إذا بابنة من جوارهم قادمة بجرّتها لتستقى ، فحيت « لطيفة » ، فردّت هذه تحيتها حسب عادتهن ، ثم طلبت منها أن ترفع لها الجرّة إلى كتفها ، فتباطأت « لطيفة » ، إذْ كانت مسترسلة فى الحديث مع صواحبها ، فصاحت بها الابنة قائلة : « أسرعى يا ابنة بائع السمن ! » فأثّر كلامها فى نفس « لطيفة » التى لم تسمع قط كلمة تعيير ، فذهبت إلى أهلها حزينة كاسفة البال ، ولم تخبر أحداً منهم بما جرى ، لكنّ إحدى صواحبها قصّت عليهم ما وقع .

ونظراً للمنزلة الرفيعة التى تحتلها « لطيفة » فى نفوس ذويها أراد هؤلاء

أن يظهروا لجيرانهم واقع الحال . فدعا زعيم بنى المعلوف إلى قريته « دامة العليا » سكان سبع قرى تجاورهم ، وأولم لهم وليمة حافلة ، وكان قد استقدم بعضهم قبل الشروع بإعداد الطعام . وأراهم أن ما وضعوه إداماً للطعام لم يكن إلا سمن يوم واحد فقط . فملأوا الدسائع [1] منه وجلسوا على ركبهم يكتّلون الطعام بأيديهم ويلتهمونه، وقد شمّروا عن سواعدهم ، وتلك عادة معظم العرب إلى عهدنا هذا . وبعد أن شبعوا وأديرت عليهم القهوة أشار زعيم بنى المعلوف إلى خدّامه أن يُريقوا على الأرض ما بقى فى الأوعية من السمن ، فإذا به شىء كثير ، فنظروا إليهم بتعجب وسألوهم عن سرّ ذلك لأن من عادتهم ادخاره إلى يوم آخر . فقال لهم زعيم بنى المعلوف : « إن ابنة فلان منكم ، وأشار إليه ، عيّرت ابنتنا " لطيفة " بقولها : " يا ابنة بائع السمن ! " فماذا نفعل به إذا لم نبعه ؟ وقد حفظنا سمن يوم واحد فقط . فكان هذا مقداره . والله وهبنا من فضله مواشى كثيرة ؟ » .

فاعتذر الضيوف عن فعلة ابنتهم ، ولا سيما والدها الذى اشتدّ خجله ، فطابت « لطيفة » بذلك نفساً ، وسرّى عنها وهى تنظر إلى ما جرى من بعض النوافذ !

---

(١) الدسيعة : الجفنة الكبيرة .

أول الغيث :

وفى صيف عام (١٥٢٠ م) دنا موسم الحصاد ، فغصّت الحقول ، بالحاصدين ، وقد قرّت عيونهم بالسهول المنبسطة والتلال المرتفعة ، متملّين محاسنها ، مستجلين بدائعها !

وذات يوم سارت « لطيفة » على متن جواد أصيل وحولها خوادمها على الحمير ناقلات الطعام إلى الحصّادين فى الحقول ، فما ابتعدت عن «دامة العليا» بموكبها هذا ، حتى فاجأها بعض فرسان الفحيليين ، أعداءُ بنى المعلوف التقليديون ، وهمّوا باختطافها ، فساورها الهلع ، ولم يلبثوا أن أحدقوا بها . فلم تقوَ على الهرب ، ولكنها دافعت عن نفسها بشجاعة فلم يلحقوا بها أذى ، لكنهم استوقفوا خوادمها وأكلوا ما يحملن من الطعام وهى تنظر إليهم من بعيد نظرات الغضب إلى أن فرغوا من الطعام فساروا فى سبيلهم وتركوها موغرة الصدر ، حاسبةً ما أصابها وخوادمها تحدّياً من الفحيليين لقومها وتحاملاً عليهم ، فأشارت إلى الخوادم أن يملأن الأطباق من بَعْر الجمال ، ويغطينها ويستأنفن المسير ، وبعد لأى وصلت بموكبها إلى محاصد قومها . فأقبل أحدهم عليها محيياً كالعادة ، فرآها كئيبة النفس ، مكفهرة الوجه ، تترقرق فى عينيها السوداوين دموع الحزن ، ثم تناول الأطباق ورفع عنها الغطاء فإذا بها مترعة بعراً . . . فسأل « لطيفة » : « ما هذا يا ابنة العم ؟ » فقالت : « هذا طعام من

لا يصون كرامة عشيرته ، ولا يذود عن حوضه بسلاحه ! » ثم أجهشت بالبكاء وأنشدت بلسان ليلى بنت لكيز الوائلية :

ليت للبرّاق عينـًا فترى ... ما أقاسى من بلاء وعنا

يا كليباً ، يا عقيلاً ، إخوتى ... يا جنيداً أسعدونى بالبـكا

عذّبتْ أختكمُ يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحاً ومسا

قل لـ « غسان » فديتم شمّروا ... لردى الأعداء تشمير الوحى [1]

واعقدوا الرايات فى أقطارها ... واشهروا البيض وسيروا فى الضحى

يا « بنى المعلوف » سيروا وانصروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرى

واحذروا العار على أعقابكم ... وعليكم ما بقيتم فى الدنا

فما أتمت « لطيفة » إنشادها حتى سالت عيناها بالدموع ، واجتمع حولها إخوتها وبنو عمومتها وأتباعهم ، فقصّت عليهم إحدى خوادمها تفصيل ما وقع ، فحرّك ذلك ساكن غيظهم ، وتأكدوا أن أعداءهم الفحيليين الذين سرّحوا مواشيهم ذلك اليوم فى زروعهم ومنعوهم وأهانوهم ، هم الذين قصدوا الإيقاع بـ « لطيفة » ، فعقدوا اجتماعاً فى تلك الأمسية أقرّوا فيها ، بعد جمع الغلال وبيعها مع مقتنياتهم ، الفتك بخصومهم وترك بلادهم ، قاصدين لبنان للطمأنينة التى سادته إبان الفتح العثمانى ،

---

(١) الوحى : السرعة .

لكنّ ثورة الغزالى[١] الشركسى ، نائب دمشق فى تلك السنة ، أحدثت اضطراباً فى حوران وما يجاوره .

إلى لبنان :

شرع بنو المعلوف فى بيع بعض مواشيهم وأراضيهم وحالفهم الغلاء الذى حدث فى عام (١٥١٩ م) وارتفاع أسعار المواشى — كما ذكر المرحوم البطريرك أسطفان بطرس الدويهى فى كتابه « تاريخ الأزمنة » — وقصدوا لبنان متلفتين إلى حوران ، موطنهم الأول ، ومنشدين أنفسهم قول الشريف الرضى :

ولقد وقفت على ربوعهم ... وطاولها بيد البلى نهبُ
فبكيتُ حتى ضجّ من لَغَبٍ ... نضوى ولج بعذلىَ الركبُ
وتلفتتْ عينى فمذ خفيتْ ... عنى الطلولُ تلفتَ القلبُ

واجتمعوا أولاً فى سهل البقاعين وبعلبك وأنسوا بمنظره الفسيح واتخذوا قرية سرعين[٢] موطناً لهم ، لكنّ الأيام لم تصفُ لما كان يحدث بينهم وبين بعض المتاولة من المواقع ولا سيما عرب البقاع ، وفى عام (١٥٢٦ م) صمم بنو المعلوف على مبارحة (سرعين) إلى (جبة بشرى) ومن هذه توّزعوا فى لبنان الشمالى ودومة البترون وسائر أنحاء لبنان .

---

(١) روى البكرى فى تاريخه أن الغزالى الشركسى ، نائب الشام ، انتهز موت السلطان سليم وادعى الملك وخطب لنفسه واستولى على قلعة دمشق فكثرت القلاقل إلى أن جاء فرحات باشا من الآستانة وأخمد ثورته وأمسكه قرب الصالحية وقطع رأسه وبعث به إلى الآستانة .

(٢) سرعين : قرية فى قضاء بعلبك .

الفصل الثانى

عيسى إسكندر المعلوف

نشأته ـ دراسته ـ أعماله

نشأته :

فى الحادى عشر من نيسان ١٨٦٩ أبصر شيخنا المعلوف النور فى قرية «كفر عقاب» ، من أعمال المتن بلبنان ، وتلقّى دروسه الابتدائية فى مدرسة قريته ، لكن «نفس عصام» لم تقنع بالأبجدية والمزامير فى مسقط رأسه ، بل حملت «عصاماً» على الرغبة والطموح ، فانصرف المعلوف إلى البحث والمطالعة والتنقيب وكان «دودة كتب !» كما يقول الأميركيون فى أمثالهم ، ولم يفتر لحظة عن التنقيب فى شتى المظان ، حتى أصبح بعد حقبة من الزمن علماً من أعلام المعرفة الأخيار ، الذين أسهموا فى بناء صرح النهضة الأدبية المعاصرة فى العالم العربى ، وما زرته يوماً إلا ألفيته مُنقباً فى المجلدات ، مدفقاً فى الملفات ، وهو ثابت ثبات الهرم الأكبر . وقد لا يعدله فى عصاميته وجلده على البحث والاستقصاء إلا المرحوم جرجى زيدان ، منشئ مجلة «الهلال» وصاحب المؤلفات الشهيرة .

دراسته :

درس الفقيد مبادئ العلوم فى قريته ، ثم درس سنة واحدة فى مدرسة الشوير بلبنان ، مقابل قريته ، ودرس الآداب العربية على نفسه ، وانكبّ ، منذ حداثته ، على المطالعة وجمع الكتب والمخطوطات وله فى هذا المضمار باع طويلة ، كما ستقرأ فى الفصول التالية !

وكان رحمه الله يحسن ثمانى لغات حية درسها على نفسه ، هى : العربية ، الإنكليزية ، الفرنسية ، اللاتينية ، اليونانية ، التركية ، الفارسية ، العبرية .

وهو من صفوة من يتمثل فيهم لقاح الثقافتين الشرقية والغربية .

فى حقل التعليم :

كان أول عمل زاوله الفقيد التدريس فى مدرسة كفر عقاب للآباء اليسوعيين بضع سنوات ، ثم عين عام ١٨٩٣ معلماً للأدب العربى فى (مدرسة كفتين) بلبنان الشمالى فأمضى فيها أربع سنوات وصنّف هناك بعض مؤلفاته وأنشأ ثلاث روايات تمثيلية شعراً .

وفى عام ١٨٩٧ أقفلت (مدرسة كفتين) أبوابها فعين مديراً لمدرسة دوما (البترون) وصرف مدة يرعى شؤونها ، وفى عام ١٨٩٨ عاد إلى بعبدا [١] واقترن بالسيدة عفيفة معلوف ، كريمة الزعيم الزحلى الشهير

(١) مقر متصرفية لبنان الشتوى .

إبراهيم[1] (باشا) نعمان المعلوف واستقرّ فى زحلة (جارة الوادى) وزاول التجارة .

وفى عام ١٩٠٠ انتدب للتدريس فى (الكلية الشرقية) بزحلة فكان أستاذ العربية والإنكليزية والرياضيات ، وظلّ فى عمله الدراسى هذا حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

وفى (الكلية الشرقية) أسس عام ١٩٠٣ جمعية أدبية أسماها (جمعية النهضة العلمية) ولبث فى رئاستها لغاية عام ١٩٢١ وقد شجّع طلابها على الخطابة وقرض الشعر ، وسار فى تدريسه الطويل على نهج (المشجّرات) فى تقسيم العلوم والتمرّن على تحليل القواعد النحوية ووضع قواعد للإعراب البيانى بأسلوب جديد مبتكر ، وزوّد بلاد الشام مدة تدريسه بأفواج من الشبان المسلّحين بثقافة عالية ، وقد واصلوا دراستهم المهنية وأقبلوا على الطب والصحافة والمحاماة ، وانتشروا فى مواطن شتى من الوطن والمهاجر .

---

(١) ترعرع فى بيت عريق اشتهر بالوجاهة والثراء وأنجب للأدب العربى المعاصر الشعراء الأعلام :

(أ) قيصر معلوف (١٨٧٤ – ١٩٦١) ،

(ب) جميل معلوف (١٨٧٩ – ١٩٥١) ،

(حـ) ميشال معلوف (١٨٨٩ – ١٩٤٢) ،

(د) شاهين معلوف (١٨٩٠ – ١٩٥٤) ،

(هـ) فدعا معلوف (١٨٩٩) حى يرزق ومقيم فى سان باولو (البرازيل) .

وبعد نشوب الحرب الأولى لزم داره فى زحلة وعكف على تدريس أنجاله وبعض زملائهم ، واشتغل بمؤلفاته وترتيب مكتبته ، جامعاً فيها نفائس المطبوعات والمخطوطات .

فى حقل الصحافة :

لم تقف جهود شيخ بنى المعلوف عند حد من حدود العلم والثقافة ، بل زاول الصحافة وهو دون العشرين من عمره ، وأنشأ لطلابه فى (الكلية الشرقية) بزحلة جريدة (المهذب)[1] التى كان يطبعها على (الجيلاتين) ثم صارت تُطبع بالحروف المهداة إليه ، وكانت مسرحاً لأقلام تلامذته ، وبعد أن حرّرها فترة استقال وعين مدرّساً فى (الكلية الأسقفية الكاثوليكية) بزحلة .

وفى عام ١٨٩٠ انتدبه المرحوم إبراهيم الأسود صاحب جريدة (لبنان) فى بعبدا لتحرير جريدته وإدراتها وتصحيح مطبوعات (المطبعة العثمانية) فى بعبدا ، وكان يعاونه فى تحرير (لبنان) المرحوم جرجس زوين [2] ، وبعد فترة توفى هذا، فاستقل المعلوف بتحريرها ونشر فيها مقالات أدبية وتاريخية وعمرانية .

(١) صدر العدد الأول فى زحلة عام ١٩٠٦ .
(٢) محرر (البشير) سابقاً .

وفى عام ١٩٠٨ انتدبه المغفور له البطريرك غريغوريوس حداد[1] ؛

---

(١) ولد فى « عبيه » بلبنان عام ١٨٥٩ وكانت « عبيه » مقر النهضة العلمية فى لبنان التى أضرم جذوتها المرسلون الأميركيون بتأسيس أول مدرسة داخلية فيها ، فانتسب لها هذا البطريرك وهو فى الثانية عشرة من عمره وبرع فيها بالعلوم اللغوية والرياضيات وفى عام ١٨٧١ انحدر إلى بيروت واتصل بالمطران غفرئيل شاتيلا فأدخله المدرسة الإكليركية التى أنشأها فدرس على اللغوى الشهير المعلم شاهين عطية وغيره وفى عام ١٨٧٥ اتخذه المطران غفرئيل كاتم أسراره ، وفى عام ١٨٧٩ سامه شماساً وفى عام ١٨٩٠ سيم أسقفاً لطرابلس الشام ، وكانت باكورة أعماله إصلاح (مدرسة كفتين) الأرثوذكسية .

ولما توفى البطريرك ملاتيوس الدومانى الدمشقى اتجهت الأنظار إلى المطران حداد ، فانتخب بطريركاً ، وفى صيف عام ١٩٠٦ شجع النهضة العلمية وأسس مجلة (النعمة) ، وفى عام ١٩١٣ سار إلى روسية بدعوة من القيصر نقولا الثانى ولقى فيها حفاوة بالغة ، وعاد إلى دمشق ليصطلى بنار الحرب العظمى وليطوف مع شمامسته وقواسيه بجموع الجياع المطروحين فى الأزقة والشوارع ، وليحملهم إلى الدار البطريركية والمدرسة التى تقابلها ، ويعتنى بإعالتهم وطبهم وكثيراً ما كان يطعمهم بيده غير ناظر إلى مللهم ونحلهم وجنسياتهم ولهذا كنى « أبا الفقراء » .

ومما يؤثر عنه أن الراهبة المنوط بها إطعام الجياع جاءته يوماً متذمرة من عدم إمكانها إعالة جموع الجياع لقلة الطعام وكثرة الآكلين واقترحت عليه أن يقتصر على أبناء ملته الأرثوذكسية فأجابها : « غداً نرسل إليك الخبز وقد كتب على كل رغيف اسم آكله ومذهبه فأطعمى كلاً ما يخصه ! » .

وفى اليوم الثانى جاءها الخبز كالعادة فتعجبت من ذلك وعادت تذكر البطريرك بوعده فقال لها : « إن الله أعطانا الخبز لنأكله دون النظر إلى الملل والأجناس وعلينا أن نبذله للجميع ! » فخجلت الراهبة وعادت أدراجها نوزع الخبز على الجياع ، وفى ذلك قال الشيخ عبد الرحمن قريطم البيروتى مادحاً هذا البطريرك العربى الغسانى الإنسانى فى ديوانه المطبوع :

ومعجزة المسيح بدت قديماً   بمائدة وحيرت العقولا

فتشرى للألى نزلت عليهم   ومن قد شاهدوا (عيسى) الرسولا =

لإدارة المدارس الأرثوذكسية بدمشق فأسهم أولاً فى تحرير (العصر الجديد)[1] ومجلة (النعمة)[2] التى بلغت مستوى عالياً من الرقى والازدهار .

= ولو جاءت لنا فى الحرب يوماً بحوت واحـد حازت قبولا
ولكن ناب هذا البحر عنها « أبو الفقراء » من أضحى وكيلا
صفات كلها غـرر حسان ولست أرى لهـا أبداً مثيلا !

ومما يؤثر عن غبطته اعتزازه بنسبه العربى ، ولما بايع المغفور له الملك فيصل الأول فى دمشق إثر انتخابه ملكاً لسورية قال غبطته مخاطباً المليك العربى : « بيننا وبينكم عهود فى هذه القاعة لا تغيب عن ذاكرتكم الشفافة ، فإذا كنتم لا تزالون عليها فإننا عليها لراسخون ! »

وظل غبطته على ولائه للمليك الهاشمى حتى بارح دمشق إلى حيفا فمصر ،وقد سبقه بعربته إلى محطة الكسوة وودعه بالقبلات والدمع السخين وأسعفه بالمال ليستعين به فى تلك الساعة الحرجة .

وفى أعقاب عام ١٩٢٨ استأثرت به رحمة ربه فنقل من بيروت إلى دمشق حيث دفن فى مدافن البطاركة الأنطاكيين أمام الكاتدرائيه المريمية ، وعندما بلغ نعشه بلدة (بر الياس) فى البقاع وقف الدكتور محمد أمين قرعون يؤبن الراحل الكبير وارتجل خطبة نفيسة قال فيها : « والله لو أن الإسلام يجيز لى أن أعتقد بنبى بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) لقلت إنك نبى ! »

وقال الشيخ مصطفى الغلاييني من خطاب مؤثر ألقاه فى حفلة تأبينه ببيروت : « لقد ادعاك النصارى والمسلمون والكل يزعم أنك بطريركه أما أنا فأقول : إنك لم تكن بطريرك طائفة من الطوائف وإنما أنت بطريرك الإنسانية الفاضلة ! » .

وحسب غبطته فخراً جهاده فى استعادة الكرسى الأنطاكى إلى أصحابه العرب بعد أن احتكره الإكليروس اليونانى مئة وخمساً وسبعين سنة (١٧٢٤ - ١٨٩٩) !

(١) أنشأها المحامى المرحوم ناصيف أبو زيد وصدر العدد الأول منها فى ١ تشرين من عام ١٩٠٨ .

(٢) أنشأها فى دمشق المغفور له غريغوريوس حداد بطريرك الكرسى الأنطاكى وصدر العدد الأول فى ١٥ حزيران من عام ١٩٠٩ .

وكان قلم المعلوف يسخو عليها بمقالات علمية وأدبية واجتماعية نفيسة ؛ فيها تعريف بالمخطوطات العربية وتراجم المشاهير ونحوها مما هو مبثوث فى تضاعيف مجلداتها الستة (١٩٠٩ — ١٩١٤) وعلى الخصوص خواطره وانطباعاته فى رحلته الأولى إلى حلب عام ١٩٠٩ بحثاً عن نوادر المخطوطات ، فتفقد مكتباتها ، وابتاع نوادر مخطوطاتها ، ولا سيما خزانة آل الأنطاكى الثمينة ، فابتاع منها قسماً كبيراً وأهم ذلك (تاريخ البطاركة) للعلامة المرحوم مكاريوس ابن الزعيم صاحب الرحلة إلى روسيا [١] .

وفى هذه المجلة كتب المعلوف تاريخ الصحافة من أول نشأتها إلى سنة ١٩٠٨ .

وفى تموز عام ١٩١١ أنشأ المعلوف مجلة (الآثار) وكانت الفريدة من نوعها فى العالم العربى بمباحثها الأثرية ، وعلى صفحاتها تجلى نبوغه وذاع صيته فى الأوساط العلمية ، ومن المؤسف أن هذه المجلة الراقية لم تعمر ، قبل الحرب الأولى وبعدها ، أكثر من خمس سنوات .

ولم تقتصر روائع المعلوف على ما أسس من صحف وما نشر من مقالات ، وما صنف من مؤلفات ، بل كانت أمهات الصحف والمجلات فى العالم العربى تتسابق إلى نفثات قلمه ، فكتب فى « المقتطف » و « الهلال » و « المشرق » و « النعمة » و « المسرة » و « البشير »

---

(١) راجع مجلة (النعمة) الدمشقية (١ : ٢٢١) .

و « الضياء » و « مجلة سركيس » و « مينرفا » و « مجلة المجمع العلمى العربى » وغيرها من المجلات الراقية فى الوطن والمهجر مقالات يحسبها أعلام النهضة الحديثة مصدراً هامًّا من مصادر الأدب العربى والتاريخ فى سائر عهوده ، ولو قُدّر لتلك المقالات أن تحزم فى مجلدات لربحت الخزانة العربية ربحاً ضخماً .

الفصل الثالث

مؤلفاته ـ محاضراته ـ شعره

المعلوف مؤلفاً :

خاع المعلوف ، مدة خمسين عاماً ونيف ، على الخزانة العربية عشرات الكتب القيمة والأبحاث الطريفة ، وأتيح لبعضها النشر وظلّ البعض الآخر يرقبُ فرج الله !

(أ) آثاره المطبوعة :

١ ـ الكتابة : بحث تاريخي أدبي ضمّنه أبحاثاً فى الخط واللغة والإنشاء ، طُبع الجزء الأول منه سنة ١٨٩٥ والأجزاء الثلاثة الباقية لا تزال محفوظة .

٢ ـ لمحة فى الشعر والعصر : مثال من كتاب (شحذ القريحة ، فى المقطعات الفصيحة) المطول فى الشعر والشاعر وفنون الشعر للمعلوف طبع سنة ١٩٠٢ .

٣ ـ الأخلاق مجموع عادات : محاضرة ألقاها فى (الكلية الشرقية) بزحلة سنة ١٩٠٢ ، وقد طبع مؤخراً .

٤ — دوانى القطوف فى تاريخ بنى معلوف : سفر كبير فى تاريخ حوران وأسرها ، لا سيما الغساسنة . وفى تاريخ لبنان وسورية وفلسطين وتاريخ المئات من أسرها . وتدوين الكثير من عادات أهلها وحوادثهم ، طبع سنة ١٩٠٧ وختمه بأبيات منها قوله :

بفضل ربى سالمتــنى الظروف	لنسخ أوراقى وجمــع الحروف
وُفقتُ فى تنسبــق تاريخنــا	وقد حوى من كل فنّ صنوف
مؤلفٌ موضـــوعه أسرتى	وأسرٌ ذكرتُ منهـــا الألوف

٥ — الأم والمدرسة : محاضرة ألقاها فى (الكلية الشرقية) بزحلة سنة ١٩١٠ وطبعت مؤخراً .

٦ — تاريخ مدينة زحلة : وفيه أبحاث كثيرة فى علم الأساطير (المثولوجيا) وتحليل أسماء الأماكن وتفاصيل جغرافية وتاريخية وعمرانية فى سورية المجوفة ، طبع سنة ١٩١١ .

٧ — مجلة الآثار : نشرت فى ثلاثة مجلدات (١٩١١ — ١٩١٤) وعطلت عند نشوب الحرب الأولى وحوَتْ مباحث أثرية ولغوية وتاريخية وأدبية ، ونشر فيها تاريخ الأمير فخر الدين المعنى ، حاكم لبنان ، الذى ألفه الصفدى بحواش واستدراكات مع رسم الأمير النادر ، وتميزت هذه المجلة بوصف المخطوطات النادرة والمباحث الأثرية والتاريخية فى بلادنا .

٨ — معارضات قصيدة (يا ليل الصبّ) للحصرى القيروانى ،

وقد ضمنّها كلمة فى المعارضة لغةً واصطلاحاً ، وتراجم قدماء المعارضين و إعراب مطلع القصيدة الأصلية ، ثم المعارضات مرتبة حسب مواطن الشعراء ، طبع الجزء الأول منها سنة ١٩٢١ .

٩ — تاريخ الطب قبل العرب : محاضرة ألقاها فى ردهة (المعهد الطبي العربى) بدمشق سننة ١٩١٩ ونشرت فى مجلة المعهد المذكور وطبعت سنة ١٩٢٤ .

١٠ — صناعات دمشق القديمة : محاضرة ألقاها فى ردهة (المجمع العلمى العربى) بدمشق سنة ١٩٢٢ وطبعت فى نشرة الغرفة التجارية وجُمعت فى رسالة مستقلة سنة ١٩٢٤ .

١١ — تاريخ الطب عند العرب : محاضرة ثانية ألقاها فى (المعهد الطبي العربى) فى دمشق ونشرت فى مجلة المعهد الطبي سنة ١٩١٩ وطبعت برسوم طبعاً متقناً سنة ١٩٢٢ .

١٢ — الأسرُ العربية المشتهرة بالطب العربى ، وأشهر المخطوطات العربية الطبية : محاضرة ألقيت فى المؤتمر الطبي المنعقد بالجامعة الأميركية فى بيروت فى ٦ أيار ١٩٢٥ وطبعت برسوم سنة ١٩٣٥ .

١٣ — تاريخ الأمير فخر الدين الثانى المعنى : حاكم لبنان من سنة ١٥٩٠ — ١٦٣٥ ، طُبع مصوراً فى جونية (لبنان) سنة ١٩٣٤ مزيناً بستين رسماً نادراً بمقدمة إفرنسية و بحوث ذات شأن ، وقد صرف المعلوف

على تصنيفه وجمعه أكثر من ربع قرن، وراجع في سبيله طائفة من المؤلفات القيمة فى لغات متعددة .

١٤ — ترجمة الأمير سيف الدولة بن حمدان : ممدوح المتنبى وحاكم حلب ، نشرت فى ذيل رواية (الأمير سيف الدولة) وطبعت سنة ١٩٢٧ .

١٥ — المبكيات : مجموعة مراثى السيدة مهيبة ابنة يوسف أبى على المعلوف ، زوجة إبراهيم الأسود صاحب جريدة (لبنان) ، طبعت سنة ١٩٠٣ .

١٦ — الغُرر التاريخية ، فى الأسرة اليازجية : مختصر من كتاب مطول ، نُشر المختصر فى (مجلة الرسالة المخلصية) بصيدا وطبع مستقلاً سنة ١٩٤٤ والجزء الأول فى تواريخ المشايخ اليازجيين ، والجزء الثانى طبع مستقلاً سنة ١٩٤٥ وضمّ تواريخ أصهار اليازجيين وبناتهم وأصهار أصهارهم .

١٧ — مجموعة فى (مقالات عيسى إسكندر المعلوف وأولاده وأنسبائه) : تقع فى ١٧ مجلداً .

١٨ — تذكار مرور سنة على وفاة الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس الرابع الأنطاكى الأرثوذكسى : كراس مصور فى ترجمته وما قيل فيه حيًّا وميتاً .

١٩ — تاريخ لبنان : طُبع فى الحرب العالمة الأولى وفيه بحث عن

الأخلاق والعادات اللبنانية ومشاهير لبنان ومؤلفيه .

٢٠ — تاريخ الأمير بشير الشهابى ، حاكم لبنان .

٢١ — الفلسطينيون عرب .

٢٢ — نوادر الحرب الكبرى .

بالإضافة إلى معاجم وكتب تاريخية وعلمية وأدبية وطبية ومدرسية لم يطبع اسمه عليها تواضعاً منه .

٢٣ — معجم تحليل أسماء [1] الأماكن : على حروف المعجم مع تفسير معانى تلك الأسماء واللغات المنحوتة منها وشىء من تواريخها مما يصوّب بعض الروايات الشاذة والأغلاط الشائعة التى أوردها المؤرخون عن أصلها .

(ب) آثاره المخطوطة :

١ — الأخبار المدونة والمروية ، فى أنساب الأسر الشرقية : تقع هذه الموسوعة الكبرى فى أربعة عشر مجلداً كبيراً مخطوطاً ، تتضمن مقدمة مطولة فى علم الأنساب وفائدته فى مجلد مستقل ، وبعدها أربعة عشر مجلداً فى تواريخ الأسر الشرقية فى لبنان وسورية وفلسطين والأردن والعراق ومصر والمغرب وإيران وآسية الصغرى ، والمهاجر من سائر المذاهب والطوائف

---

(١) بعد وفاة العلامة المترجم له أشرف نجله الأستاذ رياض معلوف على نشر هذا المعجم فصولاً فى مجلة (المشرق) ببيروت .

على اختلاف المناشئ والمواطن والأنساب بمشجرات أسمائها أصولاً وفروعاً وذكر حوادثها وتراجم مشاهيرها .

ولقد بنى المعلوف أبحاثه على العلوم العصرية فى تمييز الأجناس كعلم طبائع الشعوب وطبقاتها ، ودار البحث حول كل أسرة على ثلاثة محاور هى :

(١) الأسرة وموطنها وتسميتها وهجرتها وفروعها .

(٢) نسبة الأسرة من أعلى جدّ معروف إلى من مات من الأعقاب ، صغيراً أو عازباً أو عقيماً .

(٣) تاريخ حوادث كل أسرة وتراجم مشاهيرها ، مميزّة بتواريخ الأيام والشهور والسنين ما أمكن على مبدأ « ما لا يُدرك كله لا يترك جلّه ! » .

وكان المعلوف فى حياته يتطلع إلى موسوعته المخطوطة هذه بتحسر وتلهف ، وكلما تطلع إليها وإلى مجلدات مخطوطة « الدرّ النضيد ، فى أدب المفيد والمستفيد » لمؤلفه الشيخ بدر الدين الغزى العاملى قال متحسراً :

شكوتُ وما الشكوى لمثلى بعادة ولكن تفيضُ الكأسُ عند امتلائها !

ومن دواعى الأسى أن هذه المجلدات ما زالت تنتظر خروجاً من الظلمات إلى النور لتعرف طريقها إلى هواة التاريخ العطاش إلى مضامين تلك الموسوعة العميقة الغور ، المترامية الأطراف !

٢ ـ محاضراته فى المجمع العلمى العربى بدمشق وحلب وحمص وزحلة وبيروت والقاهرة .

٣ ـ شحذ القريحة ، فى المقطعات البليغة الفصيحة : فى مجلدين كبيرين ، الأول : فى الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، وقد ضمنه أشهر ما قيل فى هذه الأبواب عند الإفرنج والعرب ، وبحثاً فى النبوغ والذكاء وفى الحس والخيال وفى القريحة والذوق وآداب الشاعر وما يحتاج إليه الناظم فى توليد المعانى ، إلى كثير من البحوث المختلفة التى تساعد على (شحذ القريحة) وترهيف النظم والتفنن بالشعر ، كل ذلك بأساليب جديدة وقوالب عربية بليغة :

الثانى : فى ما أنشد من أشعار فى العالم العلوى وفى الفلسفة على تباين أنواعها ، مرتباً على أبواب ، من السماء إلى الأرض ، وقد ضمنه أشهر ما قيل عند العرب والعجم بلغات عديدة فى تلك الأبواب ، قديماً وحديثاً ، لا سيا فى المكتشفات الجديدة والمخترعات العصرية .

وهذان المجلدان أشبه ما يكونان بمعجم للشعر والشعراء ، يجد الطالب فيهما ضالته المنشودة ، ويغنيانه عن البحث والتنقيب ، ويقربانه من الموضوع الذى ينشده !

وأبرز ما تضمنه ديوان (شحذ القريحة) فصل فى وصف الإنسان والحيوان والطبيعة والنبات ، وجاءت المعانى المتداولة فيه متساوقة ، يرمى كل منها إلى غرض على تعدد الرماة .

وأحد فصول هذا الديوان فصل مطول بعنوان « التذكرة المعلوفية » وفيه حلّل الفقيد خصائص العربية ومميزاتها ، لا سيما باب النحت وأجراس الكلام (الأرمونى) والتربية والتعليم عند العرب وغيرها من الأبحاث الطلية .

٤ — تحفة المكاتب ، للمعرب والكاتب : فى مجلد واحد اشتمل على مباحث لغوية فى الوضع والتعريب .

٥ — معجم الألفاظ العربية العامية والدخيلة : مرتب على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا بحسب اشتقاقها ، تسهيلاً لمراجعتها ، وفيه تحقيق لأصول الكلمات الفصيحة التى حرّفها أو صحّفها العوام ، وأصول الكلمات الوضعية العامية أو المعرّبة عن اللغات ووضع الفصيح لها من كلام العرب ونحو ذلك ، وله مقدمة فى اللغة العامية وآدابها وفنونها وما ألّف فيها منذ القديم إلى اليوم فى مجلد ضخم .

٦ — معجم المصطلحات العامة : أى ما ورد فى التواريخ والأخبار من الكلمات والعبارات الغريبة التى لم تذكرها المعاجم وشرحها وبين أصولها ومعانيها ومصطلحاتها فى مجلد على حروف المعجم .

٧ — أهم خزائن الكتب العربية فى العالم : عدة مجلدات فى وصف كل خزانة فى الشرق والغرب ونوادرها .

٨ — مغاوص الدرر ، فى أدباء القرن التاسع عشر : مجلد كبير فى تراجم رجال العصر المتوفين فى كل قطر وآثارهم ومؤلفاتهم .

٩ — الدر الثمين ، فى أدباء القرن العشرين : وهو ذيل لمغاوص الدرر وفيه تراجم الذين أدركوا القرن العشرين واشتهروا بآثارهم الأدبية .

١٠ — تاريخ سورية المجوفة أو لبنان الكبير : مجلد ضخم تناول فيه تاريخ البقاع و بعلبك ، وحلل أسماء المدن والقرى بحسب الأساطير القديمة (الميثولوجيا) وترجم فيه العلماء ووصف الحوادث .

١١ — نوابغ النساء : أبحاث جليلة عن المرأة ونهضتها وتراجم الأديبات الشهيرات عند الإفرنج والعرب ووصف الزواج والطلاق وتربية الأولاد .

١٢ — الطرق الأدبية ، فى تاريخ اللغة العربية : ثلاثة مجلدات فى آداب العربية وتاريخها وفنونها وآثارها ، وقد جاءت فى أطول ومطوّل ومختصر ، تسهيلاً لمطالعة العالم والأستاذ والطالب .

١٣ — أسرار البيان : كتاب مدرسى فى علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، بأسلوب عصرى ، وفيه تمارين وأمثلة وتفاصيل بديعة التبويب من شأنها ترسيخ القواعد فى ذهن الطالب .

١٤ — الأسلوب النديم ، فى التربية والتعليم : فى علم الثقافة وعلى نمط مدرسى مفيد .

١٥ — نفائس المخطوطات : عشرة مجلدات تتضمن وصف ما رآه المؤلف من المخطوطات ومؤلفيها والنسخ الموجودة فى المكتبات ، وهل طبعه المستشرقون ؟ أو ترجموه ؟ أو ما عرفه بواسطة إخوانه .

١٦ — ما رأيت وما سمعت ؛ فى مجلد وصف فيه نكبات الحرب

الكبرى بأسلوب جذّاب . ولخص الحادثة بإيجاز ، واستشهد بأقوال الشعراء والمؤرخين فى أمثالها .

١٧ ــ المكتبة التاريخية والمؤرخون والفنون التاريخية ولا سيما (فلسفة التاريخ) أو (النقد التاريخى) فى مجلدين كبيرين . الأول : فى علاقة علم الآثار القديمة بالتاريخ وأغراض التاريخ عند العرب والإفرنج وما يتعلق بهذه البحوث .

الثانى : فى المؤلفات التاريخية فى الأنساب والحوادث ووصف المدن والبلدان واسمه (منتهى العجب فى تاريخ العرب) وهذا الجزء مرتب على الحروف الهجائية .

١٨ ــ تاريخ قيس ويمن .

١٩ ــ التذكرة المعلوفية : فى عشرة مجلدات كبيرة . دوّن فيها بحوثاً اختصرها غيره أو جهلها بعضهم ، مما فيه فكاهة ولذة وفائدة للمطالعين ولا سيما فى التاريخ والآداب والفنون وعلم الاجتماع والعمران والآثار ، ودرس بإسهاب مشاهير الشعراء من عرب وإفرنج .

٢٠ ــ تاريخ الزجل وأقسامه وأنواعه .

٢١ ــ شرح المتن ، فى تاريخ قضاء المتن [1] : دوّن فيه أقوال المؤرخين المختصرة عن هذا القضاء وشرحها وأضاف إليها تفصيلات وافية مما وقف عليه من مخطوطات وأوراق نادرة ، وترجم رجاله المشهورين وأنسابهم .

---

(١) قضاء المتن : يقع بين قضائى الشوف وكسروان بلبنان .

٢٢ — معجم تحليل أسماء الأشخاص : فى مجلد على حروف المعجم وفيه تفسير أسماء الأعلام الشخصية وأصولها ومعانيها من اللغات الشرقية والغربية .

٢٣ — تاريخ أنطاكية الدينى والمدنى : فى مجلد كبير يشتمل على وصف أنطاكية ومدنها وقراها وذكر تواريخها الدينية والمدنية للطوائف المختلفة .

٢٤ — تاريخ وادى التيم وجبل القلمون : فى مجلد تضمن فوائد كثيرة عن هذين الإقليمين وتواريخ مدنهما ورجالهما وآثارهما .

٢٥ — تاريخ حوران : فى مجلد تناول فيه مدنها وآثارها والأسر التى نشأت فيها .

٢٦ — تاريخ حضارة دمشق وآثارها : فى مجلد كبير اشتمل على فوائد كثيرة عن هذه المدينة وضواحيها وما يتبعها فى أدوارها التاريخية وما فيها وحولها من الآثار القديمة ، ووصفها وذكر حضارتها ومشاهيرها وآدابهم وتراجمهم .

٢٧ — رجال الحكومة والأمراء : مجلد كبير ذكر فيه من كان مقرباً من الحكام والأمراء وحائزاً على رتب فى خدماتهم مع لمحة من تراجمهم و وصف أعمالهم وصفاتهم .

٢٨ — العصريات : مجموعة من الأشعار العصرية لكبار شعراء العصر مع لمحة من تراجمهم .

٢٩ – لبنان ونكباته : مجلد ضخم جمع فيه ما حدث من الوقائع والحروب والعصبيات فى لبنان ولا سيما الذين كتبوا عنها إما سماعاً أو عياناً ، وترجم كثيراً من أقوال الفرنج فى وصفها فاشتمل على أهم الشؤون التى يجب أن تعرف عن لبنان ولا سيما فى القرون الأخيرة .

٣٠ – سفر الأحزان : فى جزأين :

الأول : فى التوديع والفراق واللقاء .

الثانى : حزن الأبد . فى رثاء الأهل والولد . وفيه وصف العلامة المفجوع ما نكب به من فقد ولده المأسوف على شبابه « فوزى » وسائر ذويه وأنسبائه .

٣١ – يومية الحرب الأولى (١٩١٤–١٩١٨) مجلد وصف فيه ما كان يحدث من الوقائع والأخبار .

٣٢ – تاريخ شهداء الحرب الماضية : مجلد وصف فيه مقتل الشهداء ولمحة من تراجمهم .

٣٣ – نكبات الحرب الماضية : مجلد وصف فيه ما حدث فى البلدان والمدن من النكبات فى تلك الحرب من الخراب والدمار .

٣٤ – لبنان واللبنانيون : مجلدان فى تاريخ مفصل للبنان وسكانه وعاداتهم وأخلاقهم وحكامهم وحوادثهم ، ومنه انتخب أشياء لتاريخ لبنان الذى وضع فى الحرب الكبرى ولا سيما (الأخلاق والعادات) و (تراجم المشاهير) وقد جاء سفراً مفيداً مصوراً .

٣٥ — درّ الأسلاك ، فى درارى الأفلاك : شرح لقصيدة فلكية نظمها العلامة المعارف بتطويل فى وصف الثوابت والسيارات واكتشافها وما قيل فيها .

٣٦ — رسالة فى الموسيقى : دوّن فيها تاريخها وفنونها وأقسامها وأقوال الحكماء والعلماء فيها ، ووصف آلاتها ومشاهير الموسيقيين .

٣٧ — رسالة فى التصوير : بحث فيها عن هذا الفن وتاريخه وآدابه ومن اشتهر به وألّف فيه .

٣٨ — أعذب المناهل ، فى إنشاء المقالات والرسائل : وضعه بأسلوب حديث سهل اشتمل على تمارين وأسئلة وأمثلة .

٣٩ — مشجرات فى العلوم والفنون : لتدريس الطالب والتسهيل عليه .

٤٠ — مجموع رحلات فى سوريه ولبنان ومصر · بضعة مجلدات دوّن فيها ما شاهده فى رحلاته إلى الأقطار الثلاثة من بيوت العلم والآثار وخزائن الكتب والمتاحف والفنون ، مع وصف المدن التى مرّ بها وشاهدها فى سفره برًّا إلى مصر .

٤١ — شعر العميان وآثارهم : مجلد صغير اشتمل على تراجم الشعراء العميان وتراجمهم ونثرهم ونظمهم ونوادرهم وعاداتهم وأخلاقهم .

٤٢ — شعر المجانين ، مجلد صغير نقله إلى (التذكرة المعلوفية) وفيه أشعار المجانين وحوادثهم ونوادرهم .

٤٣ — شعر الخلفاء والملوك والأمراء : مجلد صغير دوّن فيه مجاميع

مفيدة مما نظم هؤلاء أو نثروه . مع لمحة من سيرة كل منهم .

٤٤ ــ ثلاث روايات تمثيلية شعرية غنائية هى :

الأولى : رواية مقتل بطرس الأكبر لولده ألكسيس فى روسية .

الثانية : رواية جزاء المعروف . وهى حادثة خزيمة بن بشر مع سليمان ابن عبد الملك الأموى .

الثالثة : إنجاز الميثاق ، فى فدية إسحاق . وهى رواية ذبح إبراهيم لابنه إسحق .

٤٥ ــ بنات الأفكار : ديوان شعر المترجم له وهو فى فنون الشعر من تشطير وتخميس ونحوهما ، وبعده المدائح والمراثى والمقطعات والتواريخ الشعرية ، والشعر العلمى والعصرى والمترجم عن اللغات ، والأناشيد . وله مقدمة مبتكرة فى (تأثير الأشعار) من الشطر والبيت والبيتين إلى القصيدة والديوان ، وفيها بدائع المنظومات وما كان لها من التأثير .

٤٦ ــ تاريخ العلوم الفلكية والرياضية : استقرى فيه تواريخ هذه العلوم وتطويرها فى كل عصر عند الأمم وما ألّف فيها من البحوث .

٤٧ ــ تاريخ العصبيات عند الأمم : وصفها بالتفصيل عند الأمم ، حتى عصرنا عند العرب والفرنج وحوادثها لا سيما تاريخ قيس ويمن ، وما اشتهروا به فى بلادنا من حوادث وضحايا .

٤٨ ــ الأمثال العربية العامية : مجموعة رتب فيها الأمثال على حروف الهجاء بحسب أوائلها .

٤٩ — شرح الأمثال العربية العامية : فى ثلاثة مجلدات ذات فهارس هجائية. اشتملت على ما يحاكى أمثالنا العامية عند الأمم نثراً ونظماً .

٥٠ — ذيل شعراء النصرانية : تتمة لما نشره الأب لويس شيخو اليسوعى عن شعراء النصرانية ولم يكمله لوفاته، فذّيله المعلوف تذييلاً مفيداً .

٥١ — مجموعة فى الشعر المفقود والمشتت : كتاب ضمنه ما عثر عليه فى المخطوطات والمطبوعات المشتتة من نظم الشعراء العصريين كاليازجيين وأحمد البربير وملحم الشميل وسليم الجدى وبطرس كرامه وإلياس صالح كنعان وغيرهم .

٥٢ — نيلُ المتمنى، فى فنون المعنّى : مجلد كبير دوّن فيه تواريخ فنون الزجل وأمثلتها قديماً وحديثاً .

٥٣ — تاريخ الأمير بشير الكبير .

٥٤ — مجموعة دواوين بعض الشعراء : مثل (ديوان ابن حجة الحموى) الذى جمعه العلامة المعلوف و(ديوان الإمام الشافعى) .

(جـ) آثاره المترجمة :

ولتقف على المنزلة الرفيعة التى بلغها المعلوف بين أساطين العلم وروّاد الثقافة أسجل أعقاب هذ التمهيد أسماء آثاره القلمية المنقولة إلى اللغات الحية بأقلام نفر من كبار الكتاب الشرقيين والمستشرقين ممن زاروه فى رحلة أو راسلوه .

وبعض هؤلاء ذكر ما نقله من مخطوطات المعلوف بأمانة وتجرّد ،

عازياً الفضل للعالم العامل . وبعضهم نسبها إليه جاحداً فضل صاحبها الأول !

كان المعلوف ، يرحمه الله . يلبي طلب من يزوره أو يراسله فى أى موضوع من مواضيع العلم أو أى شأن من شئون التاريخ والأنساب . مغالياً بالحديث الشريف :

« من كتم علماً ألجِمَ يوم القيامة بلجام من نار ! »

حتى فى أخريات أيامه ما كان يضن بجواب على أى سائل رغم انحراف صحته والتشويش البادى على خزائن كتبه !

ومن النوادر الجديرة بالتدوين . والمناسبة مؤاتية . أن أحد أصحابه زاره فى مكتبته بزحلة وسأله نقل بعض فصول من مؤلفاته فأباح له المعلوف ذلك شريطة ذكر المصدر الذى استقى منه . فوعده بذلك ومضى فى نسخ ما استطابه من مقالات المعلوف !

ونشر الصديق مقالاته بعناوين بارزة لكنه لم يذكر المعلوف والمرجع الذى عوّل عليه ، وبعد أن فرغ من نشر تلك المقالات وعزاها لنفسه جاء لزيارة الشيخ عيسى فهبّ للقائه وبيده مقص يقصّ به أوراقاً ، وهو مفتوح الشفرتين ، فقال الصديق : « أما تعلمت يا أستاذ كلمة "لا" من هذا المقصّ المفتوح ؟ »

فأجابه المعلوف مرتجلا :

وقالوا كالمقصّ نرى فلاناً   يجاوبنا بلا فهو الشحيحُ

فأسرفت التمعّن فى مقصّ ... فلا ، لا ، كان منطقه الفصيحْ

رأيت الحلقتين بشفــرتيه ... كما ما رسمه الحد الصحيحُ

فقلت لهم أُخالفــكم بهذا ... ونفى النفى إثباتٍ صريح !

	اسم الكتاب	اللغة المترجم لها	اسم المترجم
١	— مزايا الشعر الأندلسى	الإنكليزية	أمين الريحانى
٢	— آثار المعرى	«	« «
٣	— تاريخ الصيد	«	الدكتور فيليب حتى
٤	— الأسر الشرقية السامية	«	موسى المعلوف
٥	— حوادث تاريخية عن إبراهيم (باشا) المصرى	الفرنسية	الشيخ خليل حبيش
٦	— الزجل وفنونه	«	ليسرف الفرنسى
٧	— تاريــخ سورية ولبنــان وجغرافيتهما	التركية	أديب مجهول
٨	— وصف مخطوطات حلب	الروسية	المستشرق كراتشكوفسكى الروسى ، وبندلى الجوزى
٩	— مقالات فى التاريخ والأنساب والآداب	اليونانية	الدكتور نجيب ساعاتى

اسم الكتاب	اللغة المترجم لها	اسم المترجم
١٠ – مطابع حلب والمطابع العربية في رومانيا	الرومانية	إميل مرقده
١١ – مباحث في شئون الشرق وآدابه وفنونه	الألمانية	المستشرق كمسباير الألماني
١٢ – آداب العرب وآثارهم	الفارسية	أديب مجهول

المعلوف محاضراً :

تميز شيخ مؤرخي العرب المعاصرين بارتجال خطبته متى أراد بلغة سهلة فصيحة ، ولا يفارق المنبر إلا وقد ترك في النفوس أثراً ظاهراً بدفاعه عن قضية تاريخية يراها عادلة !

وشأنه على المنبر شأن رجال العلم والفكر حينما يُقبلون على مخاطبة العقول النيّرة ، ودونك أبرز المواضيع التي حاضر فيها المعلوف :

المراسلة بالحمام الزاجل ، الطب عند القدماء . حل ثلاثة رموز أثرية في متحف دمشق : (ميترا ، نانيت . أسكولاب) . خصائص اللغة العربية لا سيما النحت وأجراس الكلام Harmonie . فلسفة التاريخ أو النقد التاريخي ، الألعاب الأولمبية ، التراسل بالبريد والنار ، الرياضة البدنية عند العرب والإفرنج ، الزلازل في سورية . الشعر

الأندلسى . سكان سورية بشهادة آثارها . العلاقات التاريخية بين مصر والشام . أبو الطيب المتنبي وشرّاح ديوانه . مدرسة الإسكندرية ونوابغها وكتاب (جر الأثقال) لهيرون اليونانى أحد أبنائها وقد نقله إلى العربية قسطا بن لوقا البعلبكى برسوم بديعة فى خزانة المعلوف . العرب وطب الأسنان . التداوى عند العرب للوقاية من الأمراض . الأعضاء الصناعية

الطب العربى . طب العيون . مباحث مختلفة فى الطب عند العرب . الكتب الطبية المؤلفة فى فحص النبض والبول عند العرب . الوصايا الصحية عند العرب . الحمى طبياً ولغوياً . قصيدة فى أصرار المتند (الكورسيه) . جودة الهواء والماء فى لبنان . الصحف الطبية العربية . من الأشعار الطبية العربية . قصيدة فى وصف الربو (البهر) . الحمّامات أو الينابيع الحارة . تواريخ الطب والأطباء باللغة العربية . الأراجيز الطبية لابن سينا . وصف مخطوطين قديمين فى مصر وسورية . التعريف فى الجراحة للزهراوى الأندلسى ورسوم الآلات الجراحية . العرب والجراحة . القانون (لابن سينا) وأراجيزه الطبية . الموشحات الأندلسية . الأوائل (وهو بحث طريف عن أول من عمل شيئاً عند قدماء اليونان والرومان والفرس والعرب ثم عند من جاء بعدهم من الأمم إلى عصرنا الحاضر) . البريد عند العرب . العرب فى الأندلس . إيوان كسرى . إلخ . .

عدا عشرات المقالات التى نشرت فى « مجلة المجمع العلمى العربى » و « الهلال » . و « المقتطف » . و « الضياء » . و « الحكمة » . البيروتية .

و « المجلة الطبية » . الدمشقية ، و « المهذب » ، الزحلية ، و « الإصلاح » الأرجنتينية ، و « النعمة » الدمشقية ، و « الضاد » ، و « الكلمة » ، و «الحديث» الحلبية ، و « مجلة قف إلياس » البقاعية .

وأغلب تلك المحاضرات القيمة لم يطبع حتى اليوم سوى محاضرة مفيدة ألقاها فى المؤتمر الطبى المنعقد مساء السادس من أيار عام ١٩٢٥ فى الجامعة الأميركية ببيروت بعنوان « الأسر العربية المشتهرة بالطب العربى وأشهر المخطوطات الطبية العربيه » معززة برسوم الآلات الجراحية التى عرفها العرب من قبل .

وطبعت هذه المحاضرة على نفقة المرحوم الدكتور سامى حداد أحد نوابغ الجراحة فى لبنان .

رحم الله المطران بولس سلمان أول رئيس لأساقفة الأردن القائل :
«لو هيئ لك أن تستمع لأحاديث العلامة المعلوف فى شئون التاريخ وشرح قضاياه ، لحدّثك ثلاثين عاماً متواصلاً ، لا ينقطع ولا يتلعثم ولا يكلّ ولا يملّ ، ولا يبطئ ولا يزلّ ! » .

المعلوف شاعراً :

خلّف المعلوف ثروه شعرية ضخمة وديوان شعر ما زال مخطوطاً ويحتوى على ثلاثة عشر ألف بيت تبحث فى الأدب والتاريخ والأخلاق وبعض المعربات عن اللغات الأجنبية والشعر المعاصر .

ومن حسنات منظومه أنه سخّر التعابير الشعرية للمصطلحات العلمية ، وصدّر ديوان شعره (بنات الأفكار) بمقدمة مبتكرة في تأثير الأشعار وقد فصّلنا ذلك في باب (آثاره المخطوطة) .

مختارات من شعره :

ترك الفقيد العلامة المعلوف طائفة من الدواوين الشعرية منها « سفر الأحزان » وفيه وصف مصائبه الدامية التي واجهها بدمعه العصيّ ، وأبرزها فجيعته الكبرى بنجله المرحوم « فوزي »[1] شاعر الخلود ، وفي ذلك يقول من قصيدة مطولة :

ذروا الثاكل المحزون مضنًى بخطبه
ولا تزعجوه فهو لاهٍ بكربه

يقول الذي يحيي الليالي بندبه :
« لكل امرئ ضيف يسرّ بقربه
ومالي سوى الأحزان والهمّ من ضيف !

وقفنا لـ « فوزي » كل ما كان عندنا
من الأمل الباني بمسعاه مجدنا

(١) اقرأ قصة هذا الهزار المنتحر في كتابنا (شاعر الطيارة فوزي معلوف) من منشورات (دار المعارف) بالقاهرة

وقد نقض الدهر المروّع عهـدنا
يقول خليلى : « كيف صبرك بعدنا ؟ »
فقلت : « وهل صبرٌ ! فيُسأل عن كيف ؟! »

وسجل المعلوف بعدسته مشهداً من مشاهد الحرب العالمية الأولى ومن ذلك قوله :

حملت من الأيام ما ليس ينقـل
ومن نـكد الإخوان ما ليس يحمل

تباين أخلاقٍ ، وخلفُ مبـادئٍ
بهذين نفسُ الحرّ والله تُقتـلُ

طباعٌ بهـا خبثٌ وشرٌ وفتنـةُ
يقابلهـا منى دوامـًا تجمـّل

صبرت على هذى الطباع لأنـنى
تجاهلت حتى قيـل إنى أجهـلُ !

أصـاحبُ إخوانـًا فأستر عيبَهم
وهم يفضحـونى بئس ما قد تحمّلـوا

يلومونى جهلاً ولى الفـوز واضـح
ويشـكوننى وهماً فأُلحـى وأُعذلُ

وأرعى وداداً ليس يرعون بعضه
وأحمل جوراً فى ولاهم وأعدلُ

وأبغى وفاء ليس يبغون بعضه
وأحمل جوراً فى ولاهم وأعدل

وأرضى نخال ليس يرضون بعضها
وكم فى ولاهم كل يوم أنقّل !

إذا جئتُ معروفاً فذاك مساءَة
ولكنهم مما أساءوا تنصلوا

عليهم حقوق ليس يوفون بعضها
وكم لى تقاضونى حقوقاً وأعضلوا

عنادٌ بلا فهم ووعدٌ بلا وفا
وجهلٌ بلا حلم وما ذاك يجملْ

إذا عاش حر الفكر بين جماعة
يسومونه الإذلالَ . . . فالموتُ أفضلْ !

وجلا المعلوف بشعره العذب صورة ناطقة حيّة لبعلبك الخالدة بأطلالها ، المتشامخة بأعمدتها :

إذا أوحش السياح فى الغرب مربع
ففى الطلل الشرقى أنسْ ومنجعْ

وإن ساغ فخــر بالقديم فإنمـــا
يسوغ لنا الفخر الذى لا يضيــعُ !

ففى الشرق للأصنام ثَمّ معابــد
ولا سيما للشمس قد طاب مطلعُ !

لقد أبقت الأيــام آثار شرقنـــا
وليس لهـــا ندٌّ على الأرض يرفــع

فكم شيد فيه هيكلٌ جاء جامعاً — لأتقن وضع مثله ليس يوضعُ !
وكم سجد العبادُ فيه وإنمــا — بهامته صـــدرُ الذوائب ينزعُ
ففى بعلبك الصرحُ وطّدَ شامخاً — وليس لمن يبغى احتذاه تذرّعُ
إذا قيل فاق اليومُ ما كان قبله — فقل كذب الراوون إذْ ليس مُقنع
لكم حار فى هذى الرسوم مهندس — وليس على ما مثّلوه تصنّــعُ
من استنطق الآثار أغناه صامتٌ — يقول: ابتنوا مثلى فإنى الممنّــعُ
فيا أيها الإنسان هل أنت خالــدٌ — لتبنى بناءً لم يروّعه مصرعٌ!
وفى صرحنا الأحجار ذات ضخامة — بأعمدة تُحــنى عليهن أضلعُ !
فشقّ على فتك الزلازل هدمها — لذا انقطعت عنها فلم تكُ ترجعُ!
وفى حجر (الحُبلى) تقوم بنقله — فكيف الذى قامت به وهى تُرضعُ !
وكم آلةٍ للرفــع فيه منيعــةٌ — فليس يجاريها لدى النقل مرفعُ!

وكم قام فيها منجنيــق صوابهــا   يقصر عن مرماه فى الحرب مدفعْ

ففى آصلب الأحجــار قد جلّ نقشهم
إذا كان فى أوراقنــا الرسمُ يطبــعْ

و (تخريمهــا) يسبى العقــول لأنــه
يمثّــل أشكالاً لها الذوق مبــدعْ

كأن الصخــور الشمّ شمعٌ مذوّبٌ
تطرّزهــا فى أبــدع النقش إصبــع

* * *

ومن ثم ترقى (هيكل المشترى) الــذى
بــأبدع أنــواع النقــوش مقنــّعُ

بوابــة فى سمكهــا (النسر) حاملٌ
(مفاتيحهــا) يحمى حماهــا ويمنــع

و « لولبه » فى طى صخر كأننى   براقيــه أدراجاً إلىالجو يطلعُ !

و « هيكل أصنام » رفيع عماده   وفيه اتساعٌ لا يحاكيه موضعْ

(محاريبه) الحسناء ضمن جداره   وكم قر بها فى ذلك البهو مخدعْ !

(أساطينه) ستٌ تناجى سماءَها   على رأسها أسدٌ لها الجوُّ مربعُ

وفى خارج البنيان (هيكل زهرة)   وتلك إلهُ الحسن فيها التورّعُ !

وقد نحتوا وسط الصخور مغاوراً ... لموتاهمُ منها النواظرُ تجــزعُ

(مراقبها) قامت كقبــة دورس ... غرائب ما فى مثلها الدهرُ يطمعُ

وكمْ فى مبانيها نقوش فسيفسا ... لها رونقٌ زاهٍ وحسنٌ ممتعُ

عجائبُ هذا الكونِ سبعٌ عظيمةٌ ... تضارعها «النزهاتِ» إذهن أربع

ولكن رأينا « بعلبك » مليكةً ... عليهــنّ فى عرش العلى تتربعُ

فكانت مزاراً والشعوب تقاطـــروا ... إليها من الدنيا وفيها تخشعوا ...!

وكم قدمت فيهــا القرابين أنفساً ... وفاض لدى تلك المناظر مدمعُ !

* * *

كأنى بها تروى أحاديث من مضوا ... وناظرهـــا فى دهشة يتسمـــعُ

لقد أفرغوا جهداً برفـــع منارها ... فلم يبقَ فى قوس التفنن منزعُ

لهم همةٌ لم يطحن الصخر روفها ... وصحة آراءٍ وقلبٌ مشيـــعُ

فبالمال والآلات والوقت سلحوا ... وبالـــكد والصبر الجميل تدرّعوا

فسقياً لقوم قد أقاموا بناءَهـــا ... على أسس الإتقان ليست تزعزعُ

تصانيف تاريخ ستقرا سطورهـــا ... إلى يوم حشر أعين ليس تهجعُ

(مدينة شمس) ثبّت الله ركنها ... وأطلالها الغراء ما الشمس تطلعُ !

ويوم صرع الردى شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى (باشا)[1]

---

(١) أديب جالة من كبار الكتاب ، ولد بالإسكندريه وتخرج بمدرسة الإداره والحقوق بالقاهرة وأتقن الفرنسة وكان يفهم الإنكليزيه والإيطالية وله بعض المعرفة باللاتينية ، عين مترجماً لمجلس النظار ، فسكرتيراً ثانياً ، فسكرتيراً أول ، ومنح لقب (باشا) واتصل بعلماء المشرقيات ، ومثّل مصر فى مؤتمراتهم ، وقام بفكرة إحياء الكتب العربية ، وأحكم =

(١٨٦٧ – ١٩٣٤) أبرق المعلوف إلى (بيت العروبة) معزياً :

في النيـــل ركن تـــداعى   فيــا لهـــول المصيبـــه
لو قيل : من مات أرّخ !   لقلت : « شيخ العروبه ! »

ومن منظومه القصيدة التالية وفيها صوّر مناظرة جرت بين (المِرْقب TELESCOPE) و (المُجْهِر – MICROSCOPE)

مدح المرقب لنفسه

أفنيتُ عمري في دُجى الأحلاك   حتى اكتشفتُ غوامضَ الأفلاك
وتخذتُ في قمم الجبال صوامعاً   قد عشتُ فيها عيشة النساك
وبمرصدي أحييتُ ليلي قائــلاً   للعين : « لا تتمتّعي بكراك ! »
قوّى عيوني « هرشلُ » في سعيه   قصدَ اجتلاء مجرّة وسمــاك
فكشفت من تلك الغوامض سرّها   وجريت في الزرقاء جرى مذاكي
لو كنت في زمن الرشيد أريتكم   آيات سحرٍ فائق الإدراك !
يا قبة قد رُصّعت بنجـــومها   أنت الفنـــاة يشوقني مرآكِ !

= صلته برجالات العرب في جميع أقطارهم وسمى بـ« شيخ العروبه » وسمى داره « بيت العروبة » وجمع مكتبة في نحو عشرة آلاف كتاب ووقفها ، فنقلت بعد وفاته إلى « دار الكتب المصريه » . سأله الأستاذ خير الدين الزركلي صاحب قاموس « الأعلام » عن أصله ، فقال . إلى عربي من بيت النجار من عكا (فلسطين) وكتب المرحوم الأمير شكيب أرسلان في وصفه « كان يقظة في إغفاءة الشرق ، وهبة في غفلة العالم الإسلامي ، وحياة في وسط ذلك المحيط الجامد » .

فالطرفُ لم يفتن بغيرك منظــراً والقلبُ لم يطربْ بغير بهاك

فبشُهبك الغراء طاب تغــزّلى ولسان حالى مُفصحــاً حيّاك

أنت اكتسيتِ من الزُمرّد حلةً وتختّمت بالنيرين يداك

وشددت خصرك فى نطاق مجرّة ونظمت من دُرر النجوم حلاك

لله درُّ كسائك المسوج إذ قد طرّزته أصابعُ الحيّاك

نسجته كف النور فى منوال لي ل . والهلالُ يلوحُ كالمحواك

لما رأيتِ مــودّتى لك أخلصتْ طول المدى ، أسررت لى نجواك

جواب المجهر

كم تدعى بالوهم فضلا كاذبــاً وأنا لشخص العلم خيرُ ملاك !

كبّرتُ كل صغير جسم للملا من عالم الحيوان والأسمــاك

وكشفتُ مكروبــاً بعالجه الطبيـ ـب . فكم شفى من دائه الفتاك

لو كان « بقراطٌ » درى بمنافعى ما كان فى الدنيا عليلٌ شاك !

ولكنت قد أغنيتكم عن شرح تذ كرة الحكيم « بصيرنا الأنطاكى »

فلكم أعدتُ خرافة نسجت عنا كبنــا عليها لُحمةً كشباك

فأريتهم أثرَ الخلائــق حيــةً فى غير أرض . ناصبَ الأشراك

وخدعت أعينهم ببعض مناظر فى الثابتــات وكل ذات حراك

فالناسُ من جرّائها فى شبهة أدّت لنشر تخاصم وعــراك

بأرضنا الخضراء، مضمار السنا سرّحتُ عينى فى بديع رُباك

إن الطبيعة قد حبتــك محاسنــاً والشمس قد رشفتْ كؤوس نداك
فلأنتِ فى أزهارك الغراء قــد فقت السماء ، وربنا يرعاك
وشواعر الإنسان تدرك حسنك الز اهى ، وتُطنبْ فى مديح سناك

مغزى المناظرة

فالناسُ بين مفضّل وموفق كم شاكر منهم وآخر شاك !
والحق أن لكل شىء موقعاً كتعاقب الأنوار والأحلاك
فاجن المنافعَ وانبذ الأضرارَ إن حماية الأزهار بالأشواك
فكمجهرٍ لا تحقرنّ صغائراً وكمرقبٍ كنْ واسعَ الإدراك !

ومن روائع منظومه قصيدة فى وصف (صنين) منها :

قد زرت فى صيف رُبى (صنينا) ووددتُ لو أنى أقمت سنينا
جبلٌ يناجى بالسمو إلههُ ويُعيد صوت نسيمه التلحينا
يا حبذا النبع المبرّد سفحه فكأنه الألماس سال مصونا
سفح تدفق ماؤه مترقرقــاً بين الحصى أكرم بذاك معينا
أكرمْ بهاتيك المناظر إنها حنّت لها كل القلوب حنينا
من كان يشتمّ الغلوّ فقلْ له : حبّ المواطن قد دعوه دينا

وحسب الفقيد فخراً أنه أنجب ثلاثة نوابغ لدولة الشعر العربى هم :

« فورى » شاعر الخلود ، وقد ضمخ أدب (الضاد) المعاصر بنفثات شعره ، وعلى الخصوص (على بساط الريح) تلك الملحمة المذهبة التى

جمعت بين رقة الأندلس وفلسفة الهند وحكمة اليونان وروح العرب وفيها يقول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين : « لقد خسر الشعر العربي الحديث بموت هذا الشاعر الذى لم يتجاوز الثلاثين ، ولكنه ربح بهذه الحياة القصيرة ربحاً ما أحسبه بالقليل ، إذ زوّد دولة الشعر بملحمته النفيسة (على بساط الريح) » !

وثانى نوابغ المعلوف « شفيق » صاحب ملحمة « عبقر » ودواوين « الأحلام » و « لكل زهرة عبير » و « نداء المجاذيف » و « عيناك مهرجان » و « سنابل راعوث » وهو بلا جدال أحد أساتذة التجديد والإبداع فى مدرسة الشعر العربى المعاصر !

وثالث نوابغ المعلوف « رياض » شاعر الحب والجمال وصاحب دواوين « الأوتار المتقطعة » و « خيالات » و « زورق الغياب » و « تلاوين » و « غيوم » و « حبات رمال » و « الفراشات البيضاء » و « مسامير العاج » و « شعراء الخمرة والمرأة عند العرب » و « غيوم » ...[1]

وإنى أؤكد لك ، يا ثانى الثلاثة — رحم الله فوزى وشدّد جناحى رياض — أن سرورى وفخرى بصداقتى لكم ، المنبثقة من صداقتى للعلامة المفضال والدكم . لا يؤثّران بما أقول فى شعركم ، فقد أغضبتك مرة ، على ما أظن ، فى فجر نبوغك !

---

(١) من رسالة بعث بها فيلسوف الفريكة المرحوم أمين الريحانى للأستاذ شفيق معلوف إثر صدور ملحمة (عبقر) فى طبعتها الأولى عام ١٩٣٦ .

أما وقد ذكرت الوالد فيجب عليّ أن أقول ، قبل أن أحصر الكلام فيك ، إنه فريد زمانه ، بل فريد أزمنة التاريخ قديماً وحديثاً . فهل يا ترى جاء في تواريخ المتقدمين والمتأخرين ذكر والد كان له من أبنائه ثلاثة شعراء ؟!

لاأظنك تجد نظيراً . عالماً أو أميًّا ، لصديقي العزيز والدك ولو فتشت عنه في تواريخ العالم كلها ، فهنيئاً له ، ثم هنيئاً له !

ولكن لهذه النعمة الفريدة ناحية أخرى جديرة بالنظر . ليت شعري ماذا كنت أقول . و بماذا كنت أشعر ، لو كنت أنا أباً لثلاثة شعراء ، وكل منهم يروم مشاركتي في الكرسي الذي لي والموعود به في دار الخلود!

وقد لا يكون من قسمتي ، في سفر الشهرة والمجد ، غير سطر واحد يحمل للعالم خبري كله ، وهو أني والد الشعراء الثلاثة ! »

من أدب مجالسه :

انحرفت يوماً صحة العلامة المعلوف فعاده الكثيرون من أصدقائه ورأوا الكتب ركاماً حوله فقال أحدهم : « لم كل هذه المجلدات؟ ألم تقرأ يا رعاك الله ، ما أوصى به أحد الشعراء أولاده إذْ قال :

اجعلوا [1] إن متُّ يوماً كفني ورق الكرم وقبري المعصره
وادفنوني وادفنوا الراح معي وضعوا الأقداح حول المقبره

فأجابه المعلوف :

أما أنا فسأوصي أولادي بما يلي :

اجعلوا إن متُّ يوماً كفني ورق الكتب وقبري المكتبه

(١) صور الشاعر المرحوم داود عمون (١٨٧٢–١٩٢٢) أمنيته بعد وفاته بقوله : =

وادفنونى وادفنوا الـكتب معى وانثروا الأوراق حول المرتبه

فضحك عوّاده ثم استأنف محدّثه بقوله :

وكيف تعارض يا أستاذ أبا محجن الثقفى الذى أوصى ولده قبل موته بقوله :

إذا متُّ فادفنى إلى جنب كرمة تروّى عظامى الباليات عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقها

فأجابه المعلوف :

أما أنا فأقول لولدى :

إذ متُ فادفنى إلى جنب مكتبي فتحيي عظامى الباليات طروسه
ولا تدفننى بالعراء فإننى سيأكلنى وحش العراء وسوسه

لقد صدق والله هذا العالم الصابر فى وصيته هذه ، وبارح هذا العالم الفانى وهو يردّد باعتزاز وفخر أبرز أمانيه :

ولكل طالب لذة متنزّهٌ وألذّ نزهة عالمٍ فى كتبه !

= يا بنى أمى إذا حضرت ساعتى والطب أسلمى
فاجعلوا فى الأرز مقبرتى وخذوا من ثلجه كفنى

وصور شاعر آخر أمنيته عند ما تدنو منيته بقوله .

إذا حانت وفاتى فادفنونى بكرم واجعلوا زقاً وسادى
وإبريقاً إلى جنبى وطاساً بروى هامتى ويكون زادى !

الفصل الرابع

الخزانة المعلوفية

فى طريقك إلى بهو فسيح تجثم فيه « الخزانة المعلوفية » بزحلة يقع ناظراك على لوحة نحاسية نقش عليها بحروف بارزة :

« من أراد الدنيا فعليه بالعلم ،
ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ،
ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم ! »

وكتب على « الخزانة المعلوفية » نظماً :

كل شيء تقتنيه كله عندما تعطيه بعض الهمم
إنمـــا العلم إذا أعطينـــه الكل يعطى البعض فابذل تغنم

ولعَ الفقيد ، منذ نعومة أظفاره ، بجمع نوادر الكتب المخطوطة والمطبوعة ، وأنفق ثروة طائلة فى سبيل اقتنائها ولا سيما المخطوطات إذْ أحرز عشرات المخطوطات النادرة . وطاف بالمدن والأديار فى سورية ولبنان ومصر تحقيقاً لهذه الرغبة . وتسنى له أن يجمع طائفة منها بخطوط مؤلفيها أو تلامذتهم ، ومنها ما قرئ على المؤلف فأقرّه ، مضافاً إليها طائفة نادرة من المطبوعات كان الفقيد المعلوف يحسبها شبيهة بالمخطوطات والكتب المصورة والمزركشة .

ووضع « للخزانة المعلوفية » قائمة تشتمل على مخطوطاتها وفى كل مخطوط بحث عن مؤلفه أو واضعه ونسخه ومميزاته .

ومن أبرز خصائص « الخزانة المعلوفية » أن العلامة المعلوف جمع الكراريس والمؤلفات . التى هى من موضوع واحد ، بالمئات وحزمها مجموعة واحدة حرصاً عليها من الضياع . وبحث عن الكتب التى هى بخطوط مؤلفيها أو تلامذتهم أو منقولة عن خطوطهم . واقتناها ولا سيما فى التاريخ .

وفى عداد مخطوطاته (تاريخ العرقانى) و (تاريخ سلك الدرر) و (تاريخ القدس الجليل) و (تاريخ الأندلس) وغيرها .

وكذلك كتب الفنون الرياضية والفلكية والميكانيكية والموسيقية ، مصورة ومزخرفة ومجدولة ، وبينها كتب أنساب قديمة بمشجرات بديعة ضمنها إلى مخطوطاته فكانت آية فى الإبداع والزخرفة والإتقان برسومها وتذهيبها وتلوينها وتجليدها .

وضمت « الخزانة المعلوفية » كثيراً من المجلدات المطبوعة على الحجر ، وهى من قبيل المخطوطات ، وفيها رسوم وتزاويق وجداول فى العلوم الطبيعية والرياضية والفنية ، ومنها كتاب « حياة الحيوان » للدميرى وعلى هوامشه رسوم أشخاص وحيوانات وحشرات جاءت فى غاية الدقة والإتقان .

وبذل المعلوف جهداً بجمع كتب بالعربية والسريانية والعبرية والتركية والفارسية والقبطية والحبشية واليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والرومانية

والإسبانية والإيطالية والبرتغالية والألمانية والعبرية والهيروغليفية والهندية، والصينية، وهى بفنون مختلفة .

وكثير من المجاميع والمؤلفات دوّنت بقلم الفقيد . وجلدت بيده حفاظاً عليها من الضياع ، وهناك مخطوطات ومطبوعات مصورة بالشمس ، وأوراق ومنشورات وعرائض وأشباهها مجلدة وملصقة بخطوط أربابها وبعضها بخطوط غيرهم ، ونوادر المطبوعات القديمة فى الشرق والغرب اقتناها وبعضها طبع حديثاً لمعارضة ذلك بما طبع قديماً .

وهناك إفادات عامة وتعليقات وأنباء عن تواريخنا وأخبارنا . ومجموعات أصول العيال « الأسر » بخطوط أصحابها فى عدة مجلدات نقلت كلها أو أهمّها إلى موسوعة « الأخبار المدونة والمروية ، فى أنساب الأسر الشرقية » فى أربعة عشر مجلداً .

وكان من عادة المعلوف أن لا يعير الكتب البتة خارج خزائن كتبه . إلا فى ظروف قاهرة ، فشطر بيتين من الشعر بهذا المعنى ووضع هذا الشعر على إحدى خزائن الكتب :

« ألا يا مستعير الكتب دعنى »
فلى بالكتب يا صاح افتخار
إذا سلواى كانت فى كتابى
« فإن إعارتى للكتب عار »

« فمحبوبي من الدنيا كتـــابي »

وبجادى الـــكتب لا مجدى اتجــار

فهل شاهدت مجداً بيــع بخساً

« وهل أبصرت محبوباً يعار ؟ ! »

وفي مكان آخر — من خزانته — الأبيات التالية وهي من نظمه :

رأيت الكتب كنزاً ليس يفنى   فكن في حفظها سامى المكانه

صحاب لا يمـــلّ المـــرء منها   وليس بهـــا لمبدئه خيانه ...!

نسامره وتوسعـــه انتفـــاعـــاً   وكم قد عاضدتـــه بالإعانه !

ولـــولا أنهـــا درٌّ ثميـــنٌ   لما زخرت وربك بالخزانه !

فتلك قلوب أهل العلم تلقى   لأيدى الناس تحفظها أمانه !!

وفي «الخزانة المعلوفية» مجموعة لرسائل كبار الذين راسلوه بخطوطهم . وفهرست لوصف المخطوطات وتعريفها بأرقام .

وحرص الشيخ عيسى على جمع الكتب النادرة مثل كتب النصيرية والإسماعيلية والزيدية والدروز والماسون ؛ فاجتمع لديه منها نوادر قديمة بخطوطها ورموزها .

وعندما همّ بالسفر إلى سان باولو (البرازيل) للالتحاق بأنجاله فيها ابتاعت الجامعة الأميركية في بيروت نسخاً (مكرّرة) من مخطوطات لديه ، على هوامشها تعليقات وحواش بخط الفقيد .

وفي خريف عام ١٩٢٦ طبعت في بيروت رسالة عنوانها « مخطوطات الخزانة المعلوفية في الجامعة الأميركية » وفيها وصف مختصر لخمسمئة كتاب من نفائس المخطوطات العربية ، بينها بعض الكتب الفارسية والتركية والسريانية واليونانية ، ودونك وصف لتلك المخطوطات :

مخطوطات « الخزانة المعلوفية »

فى الجامعة الأميركية [1]

أنفذ الرئيس ضودج لجنة من أساتذة الجامعة إلى زحلة لفحص مخطوطات الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف رغبة فى ابتياعها وبناءً على عزم الأستاذ المعلوف أن يهجر الوطن ، فقصدت اللجنة زحلة وبعد أن تفقدت « الخزانة المعلوفية » ورأت فيها من ذخائر المخطوطات ما يجب حفظه فى البلاد قررت ابتياعها وحفظها فى مكتبة الجامعة باسم صاحبها ذكراً لأتعابه ومكافأة لجهاده الأدبى وهى خمسمائة مخطوط بين مجلد كبير ومتوسط ورسالة ، عدا أوراقاً أخرى وملفات ، وإليك أهم تلك المخطوطات مقسمة بحسب مواضيعها [2] :

القسم الدينى والجدلى :

٥٦ كتاباً — منه كتب فى الصلوات عند المسلمين والنصارى وفى تحديد المجامع وتفسير القداس والزيجات والرهبنات والتأملات والمزامير والتسابيح والاعتراف والعقائد والجدل والصلوات والأذكار والتعاليم الدينى

(١) نقلا عن مجلة (الكلية) العدد السادس .

(٢) بقى فى خزانة المعلوف أكثر من ألف مخطوط كثير منها نادر الوجود .

وآداب الإكليروس والرد على أرباب المذاهب وأهم ما فيه (محادثة العالم والحكيم) للقديس باسيليوس تعريب البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الأرثوذكسي سنة ١٧٠٥ م في ثلاثة أجزاء يظهر أنها بخط القس جبرائيل ابن فرحات الحلبي وهو المطران جرمانوس و (قطعة في المجامع وأقوال أبي قره) أسقف حرّان بخط قديم و (الرد على الدر المنظوم) للبطريرك بولس مسعد الماروني و (صحيفة المحو لصفحة ابن النحو) للخوري يواكيم المطران البعلبكي رداً على ابن شقيقة إلياس فخر ولعله من بني نوفل الطرابلسيين لأنهم يسمون بني النحو و (مجموع مقالات دينية) في العقائد المسيحية والانبثاق ومقالات لبولس أسقف صيدا ولعبد المسيح خادم كرسي المطرنة بهيوفركيا نصيبين وهو مجلد بخشب بخط قديم و (أربعون رسالة) بمذهب الدروز وفيها السجل المعلق وميثاق ولي الزمان و (كتاب في مذهب الإسماعيلية) بخط الأمير بن الأمير سليم من أمراء القدموس سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٥٨ م) و (كتاب السيد عبد الله التنوخي) في العقائد الدرزية ، و (آداب الإكليروس) تعريب المطران جرمانوس آدم الحلبي و (تحريف التوراة والإنجيل) و (الرد على النصارى واليهود) و (تأسيس الرهبنة والأديار) و (سور القرآن ورموزها) و (أحاديث مرتبة على حروف الهجاء) إلى غير ذلك .

القسم التاريخي :

وفيه واحد وثلاثون كتاباً بينها (تاريخ حمص) و (تاريخ أساقفة بيروت الأرثوذكسيين) و (الأمير فخر الدين المعنى) و (تاريخ الأمير عبد القادر الجزائرى) للكولونيل شرشل الإنكليزى و (الكواكب السائرة) للنجم الغزى و (تاريخ آل النابلسى) لكمال الدين الغزى و (طبقات الشافعية) لابن قاضى شهبة و (تاريخ ايمة الزيدية) و (الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش) وغير ذلك .

القسم الرياضى :

٣١ — وفيه كثير من كتب الحساب والجبر والهندسة والمساحة و (الموجز فى المساحة) و (شرح السخاوية) و (شرح خلاصة العاملى) و (مختصر المرشد) و (النزهة) و (علم الغبار) و (شرح اللمع) برسوم متقنة .

القسم الفلكى :

٣٦ — من المؤلفات الفلكيه (شرح الجغمينى) و (حوادث الجو) و (استخراج الأرباع) و (الخسوف والكسوف) و (التقويم) و (العمل بالربع المجيّب) و (المقنطرات) و (دائرة المعدّل) و (رسم الساعات)

و (شرح الزيج) و (الأسطرلاب) و (التوقيت بالساعة ذات العقربين) و (صور الثوابت) للصوفى عدا كتب التنجيم والزايرجة والأوفاق وفيها صور نفيسة .

القسم الطبى :

٤٥ — وفيه كتب فى (طب الخيل) و (غنية اللبيب عند غيبة الطبيب) و (الروضة الطبية) لعبيد الله بن بختيشوع و (زاد المسافر) لابن الجزار و (المختصر الفارسى) و (تذكرة الكحالين) و (رسالة الحميات) مصوّرة ورسائل فى (الأبوال والأنباض والأكحال) و (الفتح فى التداوى) و(أقراباذينات) و(شرح الموجز للكازرونى) و(النجيبيات) للسمرقندى و (عمدة الإصلاح) لابن القف النصرانى فى الجراحة و (شرح الموجز) للأمشاطى مصوّر .

القسم الكيماوى :

٧ — وفيه (ديوان شذور الذهب) لأبى الحسن على بن الأنصارى مرتب على حروف الهجاء و (متن المكتسب فى الصناعة الإلهية) للشيخ الرازى و (مختصر الشواهد فى الحجر الواحد) لأبى القاسم العراقى و (الدرة السنية فى تدبير الصنعة الإلهية) لعلى جابى الرومى وهو آخر الكتب الإكسيرية فى الكيمياء القديمة .

قسم الفقه والفرائض :

٢٢ — ومنه (فتاوى قاضى خان) و (فتاوى ابن نجيم المصرى) و (الفقه الحنفى) و (شرح الهداية) و (فرائض السخاوى) وشرحها للماردينى و (عمل المناسخات بالجدول) لابن الهائم و (فرائض مجدولة) بديعة الترتيب والرسوم .

قسم المنطق :

١٦ — منه (الإيضاحات النطقية) للخورى يواكيم المطران و (شرح الصبان على الملوية) و (العطار على السجاعى) و (منطق القديس يوحنا الدمشقى) .

قسم الفلسفة والقانون :

٧ — منه (فلسفة ابن سينا) نسخة نفيسة و (رسائل الغزالى) قديمة و (أحكام الملوك) و (الحقوق الكنسية) .

القسم الطبيعى :

٥ — منه (نخب الذخائر فى أحوال الجواهر) و (الأحجار) للتيفاشى و (زبد الطبيعيات) و (رسالة القبان) للعطار .

قسم النحو والصرف :

٢٥ ــ منه (مجموعة فى علم الصرف) و (شرح الأنموذج) و (الدماميني على المغنى) و (نظم حروف المعانى) و (ما يحتاج إليه المعرب) و (شرح نبذة الإعراب) و (المعرف باللام وما قيل فيه) و (الكفاية) .

قسم المعانى والبيان والبديع والعروض :

١٣ ــ منه (الروضة اللبنانية) فى شرح بديعية الخورى أرسانيوس الفاخورى و (مختصر البيان للتفتازانى) نسخ سنة ٨٠٤ ﻫ (وشرح منظومة ابن الشحنة) و (عروس الأنصارى) و (مجموع بديعيات) و (الإيشاح على الإيضاح) و (البارع فى العروض) و (مختصر المصباح) للجرجانى و (مجاميع مختلفة) فيها .

القسم الأدبى والوعظى :

٢٩ ــ منه (زجر النفس) و (حكم السمرقندى) و (حكم ابن عربى) و (مواعظ القديس يوحنا الذهبى الفم) و (كشف المعمى) لبديع الزمان الهمذانى و (المعونة على دفع الهم) و (المنتخب من ربيع الأبرار) و « عظات يوحنا الذهبى الفم) و (روضة الفصاحة) للرازى و (منتخب

الكشكول) للطريحى و (مجموعة أمثال ومجادلات وحكم) و (الصبح المنبي عن حيثية المتنبى) و (أدب الكاتب) لابن قتيبة .

قسم التراجم والمشيخات :

١٦ — منه (ترجمة البخارى) و (مناقب الشيخ أرسلان) و (سير قديسين) و (ثبت أبى المواهب) و (مُسلسلات ابن عقيلة) و (ترجمة ابن المزلق) حاكم دمشق .

قسم الرحلات والمناسك :

٦ — (مناسك السنجارى) مصوّر و (قطعة من رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى) بخطه وخط علماء عصره و (رحلة الكيلانى) من حماه إلى مكة المشرفة و (رحلة مقحط والنمير) إلى أوربة وهما كاهنان كاتوليكيان سافرا لجمع الإحسان لبناء كنيسة سيدة النجاة فى زحلة .

قسم التفاسير والشروح :

١٥ — منه (شروح قصيدة المنفرجة) و (شرح الأربعين حديثاً) و (شرح ديباجة المثنوى) و (شرح الاستعارات) و (شرح أبى الهدى القشيرى) و (شرح المرشدى على عقود الجمان) فى المعانى والبيان و (شرح جيمية ابن الفارض) لعله لابن كمال باشا و (شرح مسائل ابن بطلان) و (شرح عقائد) إلى كثير من الشروح المختلفة المواضيع .

قسم الدواوين الشعرية وشروحها :

٦٢ — (ديوان ابن الفارض) و (ابن النبيه) و (ابن سنان الخفاجى) و (عبد الغنى النابلسى) و (الخورى جرجس عيسى الزحلى) بخطه و (الخورى نقولا الصائغ) و (المتنبى) و (ابن خلوف) و (أناشيد الشيخ أمين الجندى الحمصى) و (ديوان الجمال محمد) و (الشيخ حسن الغزى) و (سقط الزند) للمعرى و (الحافظ الشيرازى) بالفارسية و (ابن معتوق) و (الأرجانى) و (مجاميع) لشعراء مختلفين و (سفائن) و (مقاطيع) و (ديوان الترك) و (ديوان إبراهيم الحكيم الحلبى) عدا كثيراً من الشروح مثل (شرح البورينى) على الفارض و (شرح ديوان الصائغ) .

قسم المقامات والمراسلات :

١٤ — منه (مقامات الحريرى) نسخة نفيسة مزركشة موشاة مضبوطة منسوخة عن نسخ مصححة قرئت على الإمام الحريرى و (سفينة النهالى) فى الأدب والفنون و (تلخيص سفينة أبى زيد البعلبكى) و (مجموع مراسلات قديمة) لكبار الكتاب المشهورين كالقاضى الفاضل والعماد الكاتب .

قسم اللغة :

١١ — منه (مجموعة) فيها (ما آت القرآن) و (ما نسب إليه من القرآن) و (فلك القاموس) و (فقه اللغة) للثعالبي نسخة مضبوطة و (الخيل) للأصمعي و (التعريفات) للجرجاني و (الصحاح) قديم من عهد المؤلف مضبوط (والمضاف والمنسوب) للثعالبي و (المثلث) لقطرب و (الفصيح) لثعلب ، نسخة قديمة مضبوطة .

قسم الجغرافية :

١ — منه (عجائب البلدان) عدا ما في الرسائل من المجاميع .

قسم الخط :

٢ — منه (رسالة في الخط وآدابه)) و (المقنع في رسم القرآن) قديم نفيس عدا ما في الرسائل من المجاميع .

قسم الأنساب :

٣ — منه (شجرة أنساب) و (مشجر مهم ملوّن بالأصباغ) إلى آخر الملوك العثمانيين منذ خمسين سنة و (نسب قضيب البان) الحلبي .

قسم الفراسة :

٢ ـ منه (الفراسة) لأرسطو ألفها للملك إسكندر المكدونى و (دلائل الفراسة) .

قسم الإجازات والعهود :

٧ ـ منه (إجازات تدريسية) فى علوم اللغة والفصاحة والفقه والطب والتاريخ و (ما يقال عند العهد والشد) و (طريقة العهد والشد) و (صك وقف بدمشق) و (ثبت إجازات) .

قسم الموسيقى :

٣ ـ منه (دوائر الأنغام) بالفارسية و (مجموعة فى الموسيقى الكنسية) و (الموسيقى الكنسية) باليونانية مربوطة بالعلامات وهو قديم مهم .

قسم نصائح الملوك والسياسة :

٤ ـ منه فى مجموعة (مقالة فى سياسة القواد) و (سراج الملوك) نفيس و (النصيحة العامة لملوك الإسلام والعامة) و (نصيحة الملوك والأمراء والوزراء) للغزالى من مقتنيات أحد الأمراء البحتريين وعلى هامشها حوادث تاريخية .

قسم الأخلاق والآداب :

٣ – منه (آداب الضيافة) و «قطعة فى آداب السلوك والأخلاق» و (أخلاق وعادات الحلبيين) إلى كثير من أشباه هذه النوادر التى فيها مزايا مهمة ليست موجودة فى بعض ما طبع منها .

نظرة عامة فى هذه المخطوطات :

إن كثيراً من المخطوطات المذكورة له مزايا خاصة (فنصيحة الملوك) للإمام الغزالى عليها اسم مقتنيها الأمير محمد بن على الحاج حجى أحد أمراء التنوخيين البحتريين فى بيروت (سنة ٩٧٦ هـ – ١٥٦٨ م) وعلى هوامشها حوادث مهمة ذات قيمة تاريخية و (مجموع ثمانى عشرة رسالة) فى الفلك والرياضيات و (مجموع تسع رسائل) فيها نوادر المجاميع المفيدة و (صور الكواكب) لأبى الحسين الصوفى فيه رسوم بديعة وكذلك (الجغمينى على قاضى زادة) الفلك متقن الرسوم والأشكال جميل الخط والحواشى و (التلويح فى شرح التوضيح) و (المقامات الحريرية) بديعة التوشية والنقوش والتذهيب و (رسالة الحميات) فيها جدول لمعرفة أنواعها وصور الدم بألوانه فى بعضها فضلاً عما فيها من الفوائد اللغوية بالتسميات والأوضاع و (المنجز على الموجز) للأمشاطى فيه رسوم أهمها مشجر فى القوى الحيوانية بديع الرسم والتلوين .

ومن قديم المنسوخات (رسائل الغزالى) كتبت سنة (٥٤١ هـ — ١١٤٥ م) و (المثلث لقطرب والفصيح لثعلب) نسخ سنة (٥٧٣ هـ — ١١٧٧ م) و (الصحاح) سنة (٦٣٨ هـ — ١٢٤٠ م) و (منهاج الدكان) سنة (٧٣٩ هـ — ١٣٣٨ م) و (المقنع) سنة (٧٤٣ هـ — ١٣٤٢ م) و (مختصر التفتازانى) سنة (٨٠٤ هـ — ١٤٠١ م) و (فرائض السخاوى) سنة (٨٥٣ هـ — ١٤٤٩م) .

وهكذا منسوخات القرون التى بعد التاسع إلى يومنا ، ومن بديع ذلك الجزء السادس من (صحيح البخارى) نسخة نفيسة مذهبة كتبت فى القرن السابع للهجرة و (كتاب فى الفلك والفلسفة) بالسريانية مسوّدة المؤلف .

ومن نفائس تلك المخطوطات ما نسخ بخط مؤلفيها مثل حاشية الصبان على الملوية فى المنطق بخط الصبان ، وقطعة من رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى بخطه ، وقطعة من ذخائر العصر فى التراجم بخط مؤلفها ابن طولون الصالحى ، وشرح الفقه الأكبر للنسفى السمرقندى بخطه ، وحاشية حسن العطار على مقولات السجاعى بخطه ، وحواشى لب الألباب بخط واضعها السيد محمد أمين عابدين الفقيه الشهير ، ورحلة الخورى فيلبس انمير إلى أوربة فى أواسط القرن الماضى بخطه ، وديوان الخورى جرجس عيسى من زحله بخطه ، ومفكرة طنوس الشدياق المؤرخ بخطه ، وحوادث سنة ١٨٤٠ فصاعداً بخط واضعها الخورى أرسانيوس الفاخورى على الأرجح .

ومنها ما نُسخ عن خط المؤلف مثل (الدر النضيد) فى التعليم للشيخ بدر الدين الغزى الدمشقى ، و « شرح منظومة ابن الشحنة الحلبى » لابن عبد الحق الطرابلسى ، ومنها ما هى مذيلة ومدبجة بحواش وتعاليق ذات شأن مثل الحكم للسمرقندى ، والبيان للتفتازانى ، وشرح الفارض للبوريني ، ونصيحة الملوك للغزالى ، وأدبيات الفلاسفة ، وروض الأخيار .

ومنها ما يصحح خطأ المترجمين فإن المحبى فى (خلاصة الأثر) (٢ : ٣٦٩) ذكر أن المرشدى المكى توفى سنة ١٠٣٧ هـ وفى حاشيته على (عقد الجمان) للسيوطى ، وهى نسخة نفيسة ، يقول إنه أتمها سنة ١٠٤١هـ فليحرر .

ومنها ما عليه اسم بعض العلماء المشهورين وهو كثير منه مواعظ يوحنا الذهبى الفم عليها اسم (مخايل بن داود بريك) وهو مؤلف (تاريخ بطاركة أنطاكية) .

ومن ذلك إجازات وأوراق مهمة منها (مجموعة فى أعمال قنصلية الإنكليز فى إزمير) بخط ترجمانها ناصيف المعلوف [١] فى حوادث جرت بأضالية بالتركية والإنكليزية والفرنسية ، إلى كثير من أمثال هذه النوادر ، فضلاً عن المجاميع المحتوية على رسائل مختلفة مهمة .

---

(١) راجع ترجمته فى كتاب « دوانى القطوف فى تاريخ بنى المعلوف » بقلم صاحب هذه المخطوطات المرحوم عيسى إسكندر المعلوف وفى مجلة (المشرق) اليسوعية بالمجلد الثامن ، وقد ألف (ناصيف) هذا سبعة وعشرين كتاباً وأتقن سبع لغات وألّف فيها .

ومن المؤلفات النادرة الوجود التى لم نقف على نسخ منها فى ما علمنا (ديوان إبراهيم الحكيم الحلبى) و (كشف المعمى) للبديع الهمذانى صاحب المقامات و (روضة الفصاحة) للرازى و (مناسك) لحسن السنجارى و (ماآت القرآن) للجعبرى و (العالم والحكيم) لباسيليوس الكبير و (منتخب الكشكول) للطريحى .

هذه لمعة بارق بل لمحة نظر فى هذه المخطوطات المتضمنة كثيراً من المواضيع التى لم يدخل بعضها فى ما قسمناه هنا ، بل لم يدخل الكثير من الرسائل التى ضمتها المجاميع المختلفة فيها أيضاً .

يوم فى خزانة

عيسى إسكندر المعلوف

هذا عالم آخر من علماء لبنان خرّج التلاميذ ودرّب الطلبة إلى جانب التأليف [1] والتصنيف زهاء خمسين عاماً فى همة تجهل القعود وبدراية واسعة وهو أبو شفيق المعلوف صاحب ملحمة (عبقر) وأبو المرحوم فوزى صاحب ملحمة « على بساط الريح » هذا القصيد الفريد الباقى على الزمن !

زرته فى زحلة فى طريقى إلى دمشق أول الخريف الماضى ، ولبثت بداره يوماً أتصفح مخطوطات فيها النادر والنفيس ، بعضها من قلمه والآخر من أقلام من تقدم .

على أن للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف تواليف مطبوعة ، لا أتمهل عندها ولا أذكر منها إلا كتاباً هو « دوانى [2] القطوف فى تاريخ بنى المعلوف » ، وقدر هذا الكتاب فى عرضه لتاريخ حوران وذكر أسرها ولاسيما الغساسنة ، وفى إشاراته إلى تاريخ لبنان وفلسطين مع تدوين طائفة كبيرة من الحوادث والوقائع بجنب الشئون العمرانية والفوائد الجغرافية ثم العادات والأخلاق .

وأما المخطوطات فغير قليلة ، وإليك التى نشطت لموضوعاتها :

---

(١) مقتطف يونيو ١٩٤٢ : الدكتور بشر فارس .

(٢) طبع فى بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ .

(أ) فى اللغة (الفصيحة والعامية) :

١ — «فهرس شرح الأمثال العامية العربية» وهو يشمل أربعة عشر ألف مثل تجرى على ألسنة الناس فى لبنان وسورية وفلسطين وما يجاورها ، وميزة الكتاب أن المؤلف يردف المثل العامى بما قيل فى معناه فى الفصحى ، نحو ذلك هذا المثل العامى : « البرطيل بيحلّ شاش القاضى » ثم يلى المثل قول الشاعر :

فبرطِلْ إنْ أردتَ الحالَ يمشى فلا يمشى سوى خفّ المبرطل

ثم قول المرحوم سليمان البستانى ناقل (الإلياذة) وقد نظم معنى للفرس :

بعشر خيارات لقاضيك رشوة تثبت فى البطيخ عشر مزارع

٢ — « معجم الألفاظ العامية والدخيلة » فى سورية ولبنان وفلسطين مع رد اللفظ إلى أصله العربى أو الأعجمى من جهة الاشتقاق أو التعريب ، وإيراد ما وضع العرب أو المؤلف نفسه للفظ إن كان أعجميًّا ، ولهذا المعجم مقدمة فى اللغة العامية وآدابها وفنونها .

(ب) فى الأدب :

١ — « شحذ القريحة فى المقتطفات البليغة الفصيحة » فى مجلدين ، الأول فى الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، والثانى فى المعانى الشعرية من السماء حتى الأرض مع ذكر العلوم والاختراعات .

وفى المجلد الأول مباحث فى الشعر عند الأمم العربية والغربية ، ومن الفصول : طبقات الشعراء عند العرب وتحليل أشعارهم ، شعراء الأعاجم شرقاً وغرباً ، الشاعر وآدابه ، الحس والخيال والمعانى ، الموازنة بين الشعر العربى فى المشرق وفى المغرب ، فى فن قرض الشعر ، اكتساب ملكة النظم ، شياطين الشعر ، اختلاف خيالات الشعراء ، كل ذلك مستخرج من أقوال العرب وآرائهم وأشعارهم ، ثم التقليد والتجديد ، الروية والارتجال ، الذكاء والعبقرية والنبوغ ، ثم الفنون الشعرية : التشطير والتخميس والتسديس إلى التعشير ، المتوشح وكيف يكتب برسوم على أشكال غصون مع أمثلة مختلفة ، التاريخ الشعرى ، إلى آخر ما هنالك من الإجازات والألغاز وغرائب القوافى والأشعار والأوزان ثم الترجمة (١) ، وأما المجلد الثانى فيتضمن المعانى الشعرية مرتبة على تحدرها من السماء حتى الأرض ، وفيه طوائف وغرائب من الوصف .

٢ — « تكملة ديوان الإمام الشافعى » الذى طبع منه مختارات فى القاهرة (سنة ١٣٢١ هـ) وقد رجع المعلوف إلى مخطوطات نادرة فى مقدمتها « مناقب الإمام الشافعى » للعسقلانى .

٣ — « مجموع الدواوين المفقودة » : هى دواوين بحث عنها الأستاذ

---

(١) ومن ملح هذا الباب الأخير ما نظمه الشيخ إبراهيم الحورانى (المتوفى فى بيروت سنة ١٩١٦) مترجماً معنى للشاعر الروسى بوشكين :

قال الذهب الدنيا ملكى   قال الفولاذ أنا الصاحب
قال العقيان أنا الشارى   قال الفولاذ أنا الناهب

الجمّاعة فى مخطوطات كثيرة متفرقة فى الخزانات المختلفة ، فجمع منها قصائد ومقطوعات لشعراء مجهولين أو مهملين كأمثال :

السيد أحمد البربير الدمياطى البيروتى وهو من أدباء مفتتح القرن التاسع عشر ، فقد عثر له المصنف على أكثر من ألفى بيت ، ومن قوله فى الشيب :

خيوط الشيب قد مدّت بفودى ومدُّ خيوطها قصر الحيـــاة
أجادت غزلها أيـــدى الليالى لتنسجـــه غداً كفناً لذاتى

وملحم الشميل اللبنانى ، وشقيقه أمين الشميل ، والسيد عبد اللطيف فتح الله مفتى بيروت ، والشيخ راجى اليازجى شقيق الشيخ ناصيف ، ومحمود بك ابن خليل بك العظم الدمشقى ، والسيد علوان الغرّ قاضى بيروت ، والسيد أحمد الغرّ مفتى بيروت ، والقس حنانيا المنيّر الزوقى ، والحاج حسين بيهم البيروتى ، وكل هؤلاء من أدباء القرن التاسع عشر .

٤ ــ « ذيل شعراء النصرانية » وفيه أتمّ المعلوف ما كان نشره الأب شيخو .

٥ ــ « تبديد الأوجال فى فن الأزجال » وهو مجموعة من الأزجال القديمة والحديثة فى سورية ولبنان ومصر والعراق وسائر البلدان العربية .

وقد استخرج المعلوف مواد هذه المجموعة من عده مخطوطات محفوظة فى خزانته ، وإنى أعلم أن المستشرق ليسرف Lecerf وصفها ورجع إليها

فى بحثه المستفيض فى الأدب العامى العربى ، ومن مطاوى هذا البحث يتبين لك أن الأستاذ المعلوف من الأثبات فى فنّ الزجل وأدبه وتاريخه .

(ج) التاريخ :

١ — « مغاوص الدرر فى أدباء القرن التاسع عشر » فى مجلد كبير يبلغ ألف صفحة ، ترجم فيه المؤلف لعدد وافر من الأدباء الذين أهملهم غيره أو زاد على ما جاء عند غيره ، والمترجمون بين عرب وإفرنج ، وهؤلاء ممن أقام ببلاد العربية أو ساح فيها مثل الكولونيل تشرشل بك الذى توفى فى ناحية سوق الغرب (بلبنان) وهو عم المستر تشرشل رئيس وزراء إنكلترة فى سنوات الحرب العالمية الماضية ، ومثل رتشارد وُد R. Wood الذى قصد إلى لبنان سنة ١٨٣١ ليخرج منه إبراهيم باشا[١] .

٢ — تاريخ آل اليازجى » فى مجلدين ، وقد دفعه المؤلف إلى مطبعة دير المخلّص بقرب صيدا .

٣ — « الأخبار المدوّنة والمروية فى أنساب الأسر الشرقية » وهو سفر شامل « لتواريخ الأسر فى لبنان وسورية وفلسطين والعراق والعجم وآسية الصغرى ومصر وبلاد العرب والمغرب وما إليها وفى المهاجر ، وهذه

---

(١) لهذين الإنكليزيين حاصة نوادر فى البلاد ، ثم إن للأول ثلاثة كتباً مفيدة منها :

١ — Ten Years Residence in Lebanon

٢ — The Druzes and the Maronites

الأسر من جميع المذاهب المسيحية والإسلامية واليهودية على اختلاف طوائفها ومناشئها ومواطنها وأنسابها وأسمائها أصولا وفروعاً ، ثم ذكر حوادثها وتراجم سلائلها إلخ » وقد بلغ هذا السفر حتى ٢٤ أغسطس ١٩٤١ أربعة عشر مجلداً كبيراً .

وأما مصادر الكتاب فبين المنقولة سماعاً والمتعقّبة فى بطون المخطوطات والمطبوعات مثل كتب الأنساب وما يأخذ أخذها من المشجرات والعناقيد ، ومثل الحجج والسجلات أو صحائف الخراج والخرج والكنانيش[1] والتذاكر والسفائن ، فهو استخراج للمخبآت .

تلك هى المخطوطات التى من قلم الأستاذ المعلوف ، ولعلّ أجلها شأناً يخرج عاجلاً ، ثم إن فى خزانة هذا العالم الدائب فى العمل مخطوطات أحب أن أشير إلى بعض ما له شأن :

١ — « مجموعة رسائل » تاريخ نسخها سنة ٦٤٤ ﻫ لكبار الكتاب مثل ابن بصاقة وابن الأثير صاحب « المثل السائر » فى مراسلة الملوك ، و بعض هذه الرسائل فى الحروب الصليبية .

٢ — مجموعة من كتب الدروز » وهى نحو ١٥ كتاباً فيها أسرار هذه الطائفة وأناشيدها ، وأخبار عن أعيانها ، وشئون فى معاملتها لسائر الطوائف ، وفى هذه المجموعة مقالات أدبية للسيد عبد الله التنوخى الدرزى .

---

(١) المفكرات .

٣ ــ « تاريخ نابوليون الأول » لنقولا الترك اللبنانى (١٧٦٣ ــ ١٨٢٨) وفائدة هذا التاريخ أنه يشتمل على كثير من المنشورات والرسائل الخاصة بحملة نابوليون على مصر .

٤ ــ « تاريخ مصر[١] » لخليل الخورى الشاعر (١٨٣٦ ــ ١٨٧٥) صاحب جريدة « حديقة الأخبار » البيروتية ، ألفه بإشارة من سعيد باشا.

٥ ــ « جامع الفنون وسلوة المحزون » تأليف نجم الدين أحمد بن حمدان بن شبيب الحرانى الحنبلى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ فيه مباحث مختلفة فهو أشبه بدائرة معارف فى الجغرافية وما إليها خاصة .

٦ ــ « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ، ومعلوم أن هذا الكتاب طبع فى أربعة مجلدات (١٢٩١ و ١٣٠١ هـ) إلا أن ميزة نسخة المعلوف أنها بخط أبى الخير خطيب الدمشقى تلميذ المرادى ، وأن المرادى نفسه وقف عليها وضبطها ، ففيها فوائد وتصويبات لا غنى عنها لمراجعة أوهام وردت فى النسخة المطبوعة .

٧ ــ « ديوان » لعبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ هـ فى « المراسلات » وهو غير « ديوان الحقائق ومجموع الرقائق » المطبوع ، وفى هذه « المراسلات » فوائد كثيرة عن دمشق وغيرها من المدن الإسلامية

---

(١) صنّف هذا الكتاب بطلب من الخديوى إسماعيل وأجيز عليه بمبلغ ألفى جنيه مصرى .

مع ذكر أسماء العلماء والصناع وعرض شئونهم .

ثم إن هنالك مخطوطات يحسن التنويه بها لما يزينها من التزاويق :

١ - « كشف الهموم والكرب فى شرح آلة الطرب » للمشهدى ، فيه تصاوير لطيفة للآلات والعازفين ، بينها صورة جارية هارون الرشيد والكمان فى يدها .

٢ - « كتب فى الفلك » لقاضى زاده الرومى من القرن التاسع الهجرى .

٣ - « كتاب جر الأثقال » لهيرون الفيلسوف اليونانى (الإسكندرى) نقله قسطا بن لوقا البعلبكى والمخطوط من القرن السادس عشر الميلادى .

٤ - « رسالة فى الشطرنج والقتال وصف العساكر بطريقة المناصيب الشطرنجية » لأحمد بن خجلة التلمسانى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

٥ - « حياة الحيوان » للدميرى المصرى ، وهو مطبوع ، لا مخطوط ، طبع فى فارس سنة ١٢٨٥ ، مع صور جميع الحيوانات المذكورة فى الكتاب (طبعة نادرة) .

* * *

هذا بعض ما انتهى إلىّ فى ذلك اليوم الذى قضيته متصفحاً ، فاحصاً ، من حولى طرائف وضنائن ، بين يدى شيخ جليل حبس حياته على طلب العلم ونفع الناس به ، ومن قبل قال الحسن البصرى : « الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء ! » .

* * *

ما هبط زحلة أديب أو مستشرق وعرّج على العلامة المعلوف زائراً إلا كان من أبرز أمانيه الطواف بـ « الخزائن المعلوفية » والوقوف على ما احتوته من نفائس المخطوطات ، والعكوف على استنساخ ما يهمّه الوقوف على مضامينه .

ومن المخطوطات القيمة التى قلبتها فى «الخزانة المعلوفية» « مجموعة فى الطب والصناعة الموسيقارية » لأبى الفرج عبد الله بن الطيّب ، وهى مجموعة بخطوط مختلفة ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير ، وفى عام ١٩٢٥ ابتاع نسخة (إضافية) من هذه المجموعة الثمينة الدكتور محمد أجمل خان ، العالم الهندى ، عندما زار المعلوف بزحلة مصحوباً بشيخ العروبة المرحوم أحمد زكى (باشا) كما ابتاع نسخة من كتاب « المغنى فى الطب » وأخرى من «رسالة أرسطو إلى الإسكندر فى الكيمياء » .

وفى « الخزانة المعلوفية » وقفت على مخطوطات نادرة منها :

١ — مخطوط فى الطب لطبيب أردنى هو الجراح النابغ أمين الدين والدولة أبى الفرج يعقوب بن إسحق القف المسيحى الكركى[١] (نسبة إلى كرك الشوبك) الذى خدم فى قلعة عجلون ثم فى قلعة دمشق واشتهر بالجراحة الحربية وغيرها ، ونقد كتب الطب التى قبله نقداً موفقاً ونزيهاً ، وتوفى سنة (٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م) .

---

(١) اقرأ ترجمته مفصلة فى كتابنا « القافلة المنسية » المطبوع فى عام ١٩٤٠ بالقدس الشريف .

٢ — « الفتح التداوى ، لجميع الأمراض والشكاوى » لأبى سعيد إبراهيم المغربى ، وقد ابتاعت نسخة (إضافية) شركة إنكليزية للترجمة والنشر مقيمة فى السودان ، بواسطة الدكتور نقولا المعلوف وكلفته حمله هدية إلى « مكتبة المتحف البريطانى » بلندن مع نسخة (إضافية) من كتاب « تذكرة السويدى » وعليهما تعليقات وحواش هامة بخط العلامة المعلوف .

٣ — « الرسالة القرطبية » بقلم الرئيس موسى بن عبد الله الطبيب القرطبى ، وقد صنّفها للملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وابتاع نسخة (إضافية) منها مغترب زحلى الأصل ، مقيم فى الولايات المتحدة .

لقد صدق الشاعر الملهم أحمد الصافى النجفى يوم همس فى أذنى ونحن خارجان من زيارة العلامة عيسى إسكندر المعلوف :

« لو عُرضت على المعلوف (إمبراطورية الرشيد) على أن يهجر خزانته العامرة أو ينفض يديه من اقتناء الكتب والسعى وراء كل مخطوط قيّم لنأى عن ذلك وأعرض ! » .

الفصل الخامس

المعلوف مؤرخاً

كان الرحالة الجبار عيسى إسكندر المعلوف ثقة من ثقات التاريخ وحجة من حججه ، ناهيك بالتاريخ الشرقى ، وعلى الخصوص تاريخ الأسر الشرقية الذى مرّ بك ذكره ، فهو فى هذا المضمار النسابة المجلّى فى كافة البلاد العربية .

ومن يقف على مصنّفات هذا الباحث المحقق ويطالع ما كتبه المؤرخون قبله وبعده لا يسعه إلا الاعتراف بفضله على « خزانة » التاريخ العربى والإقرار بأنه عانى من المشاق فى سبيل تحقيق تلك الأخبار ما لم يعانه مؤرخ من قبل ، وحسبه موسوعة « الأخبار المدوّنة والمروية فى أنساب الأسر الشرقية » وقد جاءت فى أربعة عشر مجلداً ، لم تزل مخطوطة ، لأن إخراجها يحتاج إلى نفقات باهظة يعجز عنها الأفراد ما لم تتقدم الدولة للإنفاق على هذا المشروع الضخم وإخراجه إلى عالم النور .

تشتمل هذه الموسوعة الكبرى — على مقدمة فى علم الأنساب وفائدته وما يتعلق به ، ثم تتلوه تواريخ الأسر الشرقية فى لبنان وسورية وفلسطين والعراق وإيران وآسية الصغرى والجمهورية العربية المتحدة والجزيرة العربية والمغرب العربى وسائر المهاجر .

ولترى أى جهود بذله المعلوف فى هذا السبيل ، وأىّ عزم وتصميم كان الفقيد يتحلّى بهما فى حياته ، وأية مشاق بلاها فى سبيل تحقيق هذا المشروع الجم الفائدة ، الجزيل النفع ، أطالعك تالياً بالنبذة التى مهّد بها لذلك الغرض الجليل :

مصادر الكتاب وكيفية تأليفه :

تناولت أنباء الأسر من أفواه الرواة الثقات والشيوخ المعمّرين معارضاً أقوال الكثيرين من الأسرة الواحدة بعضها ببعض على اختلاف مصادرها وتباين مواطنها لجلاء الحقائق وتصحيح الروايات ، ثم عدت إلى ما كتب عن تلك الأسر فى المطبوعات أو المخطوطات من كتب الأنساب الكثيرة ولا سيما (بحر الأنساب) وأشباهه أو التعاليق أو المشجرات أو العناقيد أو الأوراق الأخر كالوثائق (الحجج) وسجلّات المواليد والوفيات وأوراق المقاسمات وتوزيع الضرائب وتقسيم الخرج (مال العنق) والخراج (مال الأرض) والكنانيش (المفكرات) والتذاكر والسفائن والرسائل وحواشى الكتب ونحو ذلك من المظانّ المختلفة التى تعدّ بالمئات والألوف وفى مكتبتى كثير منها تقصّيت البحث عنها وطفت لأجلها أكثر أنحاء الأقطار السورية واستنسختها ، واستطلعت طلع البعيدين عنى من أقلام الباحثين المحققين بإعلانات على صفحات الجرائد والمجلات ومناشير خاصة وكتابات متوالية أكثر من ثلث قرن مما حرّك الهمم وحضّ أرباب الأسر على

البحث والتنقيب ، وأرباب الصحف على وصف الكتاب وإطرائه قبل أن يظهر لما قرأوا من أمثلته المختلفة وما عرفوه عنه من زياراتهم لى ، ومطالعة ما نقلته عنه فى بعض الصحف ، مجلات وجرائد، فضلاً عما أفاد من تنبيه الأفكار إلى وضع تواريخ ومشجرات لكثير من الأسر ولا سيما بعد ظهور كتابى « دوانى القطوف » .

و بهذه المباحث عثرت على فوائد كثيرة كانت مطوية فى زوايا خزائن الكتب ومخادع المنازل وخبايا الصناديق مهملة لا يكترث لها ومبعثرة لا يعبأ بها ، فانجلت لى من الوقوف عليها حقائق كثيرة لم أكن لأحلم بوجودها فساعدتنى على مواصلة البحث ومتابعة الطلب وتكرير النداء للاستزادة من ذلك والتوسع فى البحث مما يضيق دونه الذرع ، ولن أزال فاتحاً أبواب القبول إلى أن أستوفى الأبحاث وأستتم تواريخ الأسر إن لم يكن كلها فمعظمها ، وما يتأخر منها سأضمه إلى الأجزاء الباقية الممثلة بالطبع .

ولم أقتصر على كل هذا بل اعتمدت على درس علوم وظائف الأعضاء (الفسيولوجية) والطبائع البشرية (الإتنولوجية) والسلائل الإنسانية (الأنترو بولوجية) وأشباهها فوفقت (بين) ما روى وكتب و(بين) ما هنالك من الملامح والتقاطيع والألوان والأخلاق والعادات ، فكان لى من وراء هذه المباحث فوائد كثيرة فى تحقيق هذا (التاريخ) ولأرباب الأسر تنبيه للبحث الذى أهملوه قبلاً ، فوضع كثير منهم تواريخ ومشجرات لأسرهم فكانت الفائدة منه مزدوجة وتنبهت الأفكار إلى علم النسب الذى أهمل

أمره ، ولا سيما بعد الوقوع فى مشاكل كثيرة بتقسيم الفرائض ومعرفة درجات أنسباء الميت مما لامرجع له إلا مثل هذا التاريخ وتلك المشجرات .

ترتيبه وفهارسه :

وضعت لهذا التاريخ مقدمة مطولة فى علم الأنساب وأنواعه والنسابين ومؤلفاتهم وأسباب المهاجرات واندغام الأسر ورحلاتها ثم انتقلت إلى أخبار الأسر وكنت أودّ أن أرتب أسماءها على حروف المعجم كما فعل السمعانى فى (أنسابه) والقلقشندى فى (نهاية الأرب) وغيرهما من النسابة إلا أننى عدلتُ عن هذه الفكرة لعدم اقتناعى بما وصلت إليه يد البحث من التواريخ المتفرقة على كثرتها أمامى وقد أنهيت تسعة مجلدات ضخمة وبدأت بالعاشر منها وفيها ألوف من أصول الأسر وألوف الألوف من فروعها ، لكنى لا أزال كثير الطمع بالحصول على كثير مما فاتنى فإذا عدّ بعض أرباب الأسر إهمال تواريخهم تقصيراً منى ووجهوا سهام اللوم إلىّ لعدم انتظارى أو لمللى من الطلب فتلك السهام تعود على من لم يلبّ ندائى المتواصل والمترددة أصداؤه فى كل صقع .

ولهذا رتبتُ الكتاب مقدماً ما أنجز من تلك التواريخ التى رأيت أننى ظفرت منها بما يكفى ، ومؤخراً ما لا تزال أبواب البحث فيه محتاجة إلى التمحيص ، فأكون بهذا قد قضيتُ واجب البحث ولم أقصر فى الاستقراء كما قصر أرباب تلك الأسر بتلبية ندائى .

وتسهيلاً للمراجعات وضعت فهارس مختلفة على حروف المعجم منها ما هو لأسماء الأُسر بحسب أصولها وفروعها وبطونها وأفخاذها ، ومنها ما هو لأسماء البلدان والمدن والقرى التى سكنها أسلافهم وأعقابهم من بعدهم حتى المهاجر فى الأقطار الغربية الأوربية والأميركية والأوسترالية وبقية الجزر والبلدان فى الشرق والغرب ، ومنها ما هو الأسماء المشهورين من العلماء والأدباء والأعيان حتى عصرنا هذا فيعرف المطالع شئون أسرته ومواطنها ومشاهيرها وفروعها .

فائدة هذا التاريخ فى العصر الحاضر :

من أفضل ما تتزين به صفحات التاريخ أخبار المواطنين على اختلاف مراتبهم وأماكنهم وأصولهم وفروعهم وأعمالهم لأن تاريخ الوطن هو تاريخ سكانه ، وليس سكانه هم الذين نبغوا بالعلوم والفنون والثراء وبسطة السلطان فقط ، بل هنالك جمّ كثير من الذين اشتهروا بالأخلاق الطيبة والأعمال الخطيرة والصناعات النفيسة والبسالة والإدارة وطيب الأحدوثة ، ممن يجب أن يخلد التاريخ ذكرهم ، فلهذا كانت دعوتى لجميع أبناء الأسر ليتحفونى بتواريخ أسرهم مفصّلة أو مختصرة دعوة عامة لكل فريق منهم غير مقتصرة على طبقات معلومة ، وفتحت أبواباً رحبة فى كتابى لكل بحث يأتينى منهم على اختلاف طبقاتهم ومواطنهم ، وأصولهم ومذاهبهم ، ليكون تاريخى معجماً للأُسر .

ولما كان للتاريخ دوران فى كل زمان ومكان وأمة : دور رواية ودور تدوين ، مرّ تاريخ أسرنا الشرقية بدورين أيضاً (أولهما) دور رواية بقى أحقاباً طويلة متناقلا على الألسن ومختزناً فى مخادع الحافظة ومروياًّ من السلف إلى الخلف حتى أواسط القرن الماضى ، ولقد وُجد فى تلك الأحقاب من دوّنوا الروايات تثبتاً فى حفظها وتخليداً لأبنائها فأجادوا فى ما تركوه لنا من كتب الأنساب المفيدة مخطوطة أو مطبوعة ولكنها أقلّ من القليل ، و (ثانيهما) دور تدوين رأيت وقت جمعه الضرورى حين بدأت به .

على أن دور الرواية المتناغى به فى المجالس والمسامرات قد انقطع بانتشار المدارس وانصراف الأذهان إلى مطالعة التواريخ الأجنبية واستضعاف الأخبار الوطنية واستهجان الروايات الأهلية وعدّها من سقط المتاع فضعف ذلك الفن وكان فى تشتيت شمل الأسر فى المهاجر ما ساعد على هذا الضعف فلم تستطع الأسرة الواحدة أو الأسر المتجاورة أن يجتمع أبناؤها وحفدتها بين أيدى الآباء والأجداد ليسمعوهم تلك الأساطير ويفكهوهم بهاتيك الأقاصيص جرياً على عاداتهم الموروثة ، فوجب أن يبتدئ دور التدوين بانتهاء دور الرواية فكتب بعضهم أنساب أسر لم تتعدّ بعض الأشراف والأمراء والمقدمين والمشايخ والأعيان ممن خطروا فى بالهم أو كان لهم فى ذكر شأن وأهملت تواريخ بقية الطبقات .

فلهذا رأيت ، منذ أُميطت عنى التمائم ، أن أباشر وضع تاريخ عام

فاتخذتُّ الشيوخ من الرجال والنساء سُمَّارى وصرت أدوّن عنهم ما يقصونه علىّ أو ما أسألهم عنه فكانت رغبتى تقوى بازدياد ذلك الضعف فى الرواية وتتوفر لذتى بتوفر تلك المسطرات التى كنت أراجعها وأدهش لها مقتصراً على أخبار الأسر أصولا وفروعاً وحوادثها وسير مشاهيرها .

ثم رأيت أن كثيرين يموتون وهم من أرباب الثروة الواسعة فتكثر دعاوى ورثتهم البعيدين عنهم فيختصمون على إثبات النسب القريب لاستحقاق الميراث وليس لهم مرجع يعتمدون عليه فى صحة دعاويهم غير التاريخ ، فأخذت فى وضع مشجرات الأنساب لمن لا مشجرات لهم وكابدت عرق القربة فى ضبط كثير منها مساعدة لمثل هؤلاء .

ما تطلبه الأسر منى وما أطلبه منها :

قال ثيودوريس المؤرخ اليونانى الشهير : « إننى دوّنتُ تاريخى ليكون ذخيرة العصور لا ليكون مقالة يصفق لها استحساناً وقتيًّا ثم تلقى فى زوايا الإهمال » .

ولقد أصاب هذا الفيلسوف فى قوله ، وأرانى أطالب نفسى بواجبات كثيرة أمام هذا العمل الخطير أهمها الإخلاص فى خدمة الأُسر التى أبحث عنها فلا يسوغ لى أن أبخس بعضها حقها الصريح المثبت بأدلة راهنة وبراهين دامغة وأنساب مدوّنة وتصديق صحيح ، ولا أن أُعطى بعضها حقًّا لم يقم على صحته دليل ولا خطر فى مخيّلة باحث ، فتجافيتُ عن مضاجع التزلف والتحامل ، واتخذت الإنصاف لى ديدناً والإخلاص

دأباً ، فأعطيتُ كل ذى حق حقه بحسب ما وصلت إليه يد البحث وما أثبته التمحيص والتدقيق ، فإن شططت بما رويتُ وظهر عند بعض أرباب الأسر ما يكذبنى ويزيّف أقوالى فأقرّ بخطئى منذ الآن ولكننى لا أبرّئهم من معرّة الإهمال ووصمة الإعراض عن معاضدتى وإمدادى بما لديهم من الآثار الموثوق بها وعن كتم أخبارهم عنى إلى ما بعد نشر الكتاب ، وحسبى أن أذيّل البيت المشهور بقولى :

لا كلّف الله نفساً فوق طاقتها ... ولا تجودُ يدٌ إلاّ بما تجدُ
والناس إن أنصفونى صوّبوا عملى ... وغضّ طرفاً عن التقصير منتقدُ
فإن أزلّ فإن العذر يشفع لى ... وإن أُصب فعلى الراوين أعتمدُ

ثلاث حوادث طريفة :

تعدّ الوثائق الفريدة الموجودة فى ملفات العلاّمة المعلوف ثروة لا تعدلها ثروة ، ولكم لجأ إليها الباحثون من عرب ومستشرقين فوجدوا فيها ضالتهم المنشودة ، ويقتضينى الإنصاف للتاريخ أن أدوّن ثلاث حوادث طريفة كان محورها هذا العامل المؤمن :

١ — من أشهر مؤلفات المعلوف كتاب « دوانى القطوف فى تاريخ بنى المعلوف » ، ولهذا الكتاب القيّم فضل على المغتربين العرب فى (الترانسفال[1]) إذْ أن حكومة تلك البلاد قرّرت قبيل الحرب الأولى

(١) أحد أقاليم إفريقية الجنوبية ومن أشهر صادراته : الذهب ، والماس ، والفحم الحجرى .

طرد الشطر العربى المغترب من تلك البلاد زعماً منها أن مغتربينا فى تلك الديار « حاميو الأصل » وأن العرب أمة غير مرغوب فيها ، فترجم المرحوم موسى معلوف ، نزيل الترنسفال ، فصلاً من « مقدمة » كتاب « دوانى القطوف » وفيه يثبت المؤلف أن سكان البلاد العربية « ساميو الأصل » .

وكان من تأثير هذا الفصل التاريخى المترجم إلى اللغة الإنكليزية أن ألغت وزارة الداخلية قرارها الأول وأصدرت قراراً آخر جاء فيه :

« إن المهاجرين العرب شعب مرغوب فيه ، وإن فى وسعهم أن يدخلوا الترنسفال متى شاءوا أسوة بالشعوب الراقية كالألمان والفرنسيين والإنكليز والطليان ! »

٢ ــ عندما نجح الأتراك بسلخ لواء الإسكندرونه العربى عن أمه سورية عام ١٩٣٩ بمعونة الفرنسيين وحلفائهم ، هبّت السلطات فى سورية للتدليل على « عروبة » اللواء المغصوب ، فلم تجد مصدراً تعوّل عليه فى هذه القضية الشائكة ، وتتزود منه بالبينات والشواهد سوى « الخزانة المعلوفية » .

وغيرةً من العلامة الجليل الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف على « عروبة » ذلك الجزء المحتلّ ، وهو الغسانى الأرومة الطيب المحتد ، أعدّ مذكرة مسهبة مدعمة بالشواهد ، مؤكداً فيها « عروبة » ذلك الجزء العربى .

٣ — فى صيف عام ١٩٣٥ زار العلامة المعلوف فى منزله بزحلة مهندس لبنانى وسأله بلهفة المستجير أن يكشف له عن مسقط رأس أسرته الأول ، ويزوده بأخبارها ، لأن محاكم لبنان تنظر فى قضية ميراث هامة ،

ولئلا يحرم ذلك المهندس نصيبه من تلك التركة زوّده العلامة المعلوف بأوراق ثبوتية تؤكد دعواه ، ومدّ الشاب اللبنانى يده إلى جيبه وتناول خمسين ليرة ذهبية قدّمها للفقيد لقاء الجهود التى بذلها فى سبيل نصفته ، لكن الشخصية النبيلة ردّت المبلغ إلى الشاب بلطف .

الفصل السادس

المعلوف فى المجامع العلمية واللغوية

كان المعلوف علماً من الأعلام الأخيار فى العالم العربى ولغوياً واسع الاطلاع ، تكاد تخرج من استعراض جهوده بـ « موسوعة كبرى » تخون الأيام قارئها بتعداد صفحاتها .

لم تقتصر خدمات المعلوف على ما دبجت يراعته من مقالات طريفة ، ومحاضرات مفيدة ، وفصول رائعة نشرتها أمهات صحف العالم العربى ، بل نشط لخدمة التأليف والنشر ، واختير عضواً عاملا فى مجامع علمية عربية وأجنبية ، ودونك تفصيل ذلك :

(ا) فى مجلس المعارف بزحلة :

وفى مطلع عام ١٩١٨ عُيِّن عضواً فى مجلس المعارف بزحلة مع لفيف من أهل المعرفة والوعى ، وانتخب المعلوف نائباً لرئيس هذا المجلس ، وظل يدير رئاسته إلى نهاية الحرب الأولى ودخول العرب والحلفاء سورية .

(ب) فى مجلس المعارف بدمشق :

بعد أن بويع الأمير فيصل بن الحسين (الملك فيصل الأول فيما بعد) على عرش سورية ، قامت فى دمشق « شعبة الترجمة والتأليف »

فاستدعى الأمير زيد بن الحسين (وكان نائباً عن شقيقه الملك فيصل) العلامة المعلوف بتشويق من تلميذه المرحوم عيسى[1] العيسى ، سكرتير الملك فيصل عهد ذاك ، وعينه فى أعقاب عام ١٩١٨ عضواً فى « لجنة

---

(١) ولد المرحوم عيسى العيسى فى يافا عام ١٨٧٨ ودرس فى كلية الفرير بيافا فمدرسة كفتين الأرثوذكسية (بلبنان الشمالى) وكان أستاذه فيها المرحوم عيسى إسكندر المعلوف ، وواصل دراسته فى الجامعة الأميركية ببيروت ، وكان يجيد أربع لغات حية هى : العربية والتركية والإنكليزية والفرنسية .

كان الفقيد العيسى فى طليعة من قاوم الحركة الصهيونية ، قبل أن يصدر جريدته « فلسطين » فى يافا عام ١٩١١ وبعد إصدارها ، لتكون لسان حال مقاومة تهويد فلسطين العربية ، وإبان الحرب الأولى نفى إلى الأناضول ولاقى الأهوال هناك حتى انتهاء تلك المجزرة الكبرى ، وفى طريق عودته من المنفى التقى بقوات الأمير فيصل بن الحسين الزاحفة على دمشق فأمره الأمير العربى بمرافقته وعينه سكرتيراً خاصاً بسموه ، وعند ما نُصِّب الأمير ملكاً على سورية عُيِّن المرحوم العيسى رئيساً للديوان الملكى .

وفى عام ١٩٢١ عاد إلى يافا وواصل إصدار « فلسطين » وكرس صحيفته لمقاومة التغلغل الصهيونى وتحرير الطائفة العربية الأرثوذكسية من النير اليونانى وإيصالها إلى حقوقها الشرعية المهضومة .

وأسهم فى الحركة السياسية فى فلسطين ودعا إلى إقامة المعرض العربى الأول الذى افتتح فى القدس عام ١٩٣٣ وعُيِّن مديراً له ، وكان الغرض من هذا المعرض نشر الدعوة للسلع العربية فى فلسطين والأقطار العربية المجاورة ومقاومة البضائع اليهودية ، وترأس المرحوم العيسى أكثر من مؤتمر أرتوذكسى عربى فى فلسطين وكان عضواً مؤسساً وبارزاً فى « حزب الدفاع الوطنى » .

وفى عام ١٩٣٨ بارح يافا إلى بيروت مستشفياً وتوفى فى العاصمة اللبنانية فى ٢٠ حزيران ١٩٥٠ مخلفاً ديوان شعر فى السياسة والغزل ومذكرات قيمة فى الحركة العربية .

الترجمة والتأليف » وألقى فى « النادى العربى » بدمشق محاضرات منها :

١ — الفلسطينيون عرب .

٢ — السوريون عرب .

وبعد فترة حوّلت « لجنة الترجمة والتأليف » إلى « مجلس المعارف الأعلى » وظلّ المعلوف يزاول عمله فيه باهتمام وعناية .

(ج) فى المجمع العلمى العربى :

ولم تمض شهور حتى حوّل « مجلس المعارف الأعلى » بدمشق إلى « المجمع العلمى العربى » وانتخب الفقيد عضواً فيه وكان من مؤسسيه الأوائل[1] ، فسعى مع زملائه الغُيُر إلى إنشاء المتحف فى « المدرسة

---

(١) كان « المجمع العلمى العربى » بدمشق يتألف من ثلاثة أعضاء عاملين ، كموظفين ورئيس ، ومن واحد وسبعين عضواً شرفياً ، بعضهم مقيم فى دمشق والآخر مقيم خارجها ، يراسلون المجمع بآرائهم ويشاركونه فى عمله العلمى ، أما الأعضاء الموظفون فهم : أنيس سلوم ، الشيخ عبد القادر المغربى ، عيسى إسكندر المعلوف ، والأعضاء الشرفيون هم : الشيخ سليم البخارى ، سليم عنحورى ، فارس الخورى ، الشيخ عبد الرحمن سلام ، الشيخ عبد القادر المبارك ، إلياس القدسى ، عبد الله رعد ، سليم الجندى ، الدكتور مرشد خاطر ، المطران ميخائيل بخاش ، رشيد بقدونس ، المستشرق الفرنسى كليمان هوار Huart والمستشرق الفرنسى دوسو Dussoud والمستشرق غابرييل فران Ferrand والمستشرق لويس ماسنيون والمستشرق الإيطالى جويدى Guidi والبرنس الإيطالى ليونى كايتانى Caetani والمستشرق الإيطالى نللينو والمستشرق غريفينى Griffini والأب آسين Asin الإسبانى ودافيد لويس وبراون الإنكليزى و Beaven وبيفن البريطانى ومرغوليوث Margoliouth المستشرق البريطانى والمستشرق =

العادلية » و « مكتبة الملك الظاهر » و « مجلة المجمع العلمى العربى » وفيها كتب مقالاً مطولاً تناول فيه أسماء الكتّاب الذين أسهموا بـ « تاريخ لبنان » وأسماء مقالاتهم .

وخلال عمل الأستاذ المعلوف فى المجمع العلمى العربى بدمشق نظم عقد المحاضرات التى ألقيت فى ردهته وسعى سعياً حثيثاً لابتياع آثار تدمرية يملكها الدكتور حبيب جبور بزحلة فكانت تلك العاديات نواة « دار الآثار العربية » بدمشق .

وفى عداد تلك العاديات الزجاجيات التى قال فيها الأثرى الفرنسى

= الهولندى هوتسما Houtasma والهولندى سنوك هرغرون والهولندى أراندونك والمستشرق الألمانى هومل والألمانى مينفوخ Mittwoch والألمانى سخاو والألمانى بروكلمان وريتشارد هرتمان Hartmaun وهوروفيتس Horovitz والمستشرق الأسوجى زيتر ستين والمستشرق النروجى موبرج والدانمركى بدرس والدانمركى بول والدانمركى أوسترورب والمستشرق النمساوى موجيك والنمساوى جيير Geyer والمستشرق البولونى كوفالسكى والمستشرق التشكوسلوفاكى موسيل والسويسرى مونتيه Montelوالسويسرى هيس Hessوالفرنسى ميشو بللير Bellaire والمستشرق رينه باسيه Basset الفرنسى الجزائرى والفرنسى مارسيه Marcais وأرنوركى الفرنسى ، والشيخ محمد أبى شنب (الجزائرى) وحسن حسنى عبد الوهاب (التونسى) وأمين الريحانى والأمير شكيب أرسلان وأحمد تيمور وأحمد زكى والدكتور يعقوب صروف وأحمد كمال والشيخ أحمد الإسكندرى ورفيق العظم والشيخ خليل الخالدى والشيخ سعيد الكرمى والشيخ أحمد رضا وجبر ضومط والأب لويس شيخو وبولس الخولى والفيكونت فيليب طرازى والشيخ عبد الله البستانى وجرجى ينى والشيخ بدر الدين النعسانى وقسطاكى الحمصى وركى مغامز ومحمود شكرى الآلوسى والأب أنستاس مارى الكرملى .

« فيرولو » : « إنها أفضل مجموعة كاملة لا نظير لها فى متاحف أوربا » !
ولما فرغ المعلوف من إنشاء « دار الآثار العربية » كانت أول هدية تلقاها من غبطة البطريرك غريغوريوس حداد وهى تمثّل أربعة تماثيل تدمرية بديعة الصنع وبلاطة من الحرّى (الحجر الأسود) من العصر المكدونى اليونانى عليها كتابة يونانية طولها ذراعان وعرضها ذراع ونصف مؤطرة إطاراً بديعاً .

ولكثرة الجهود التى بذلها العلامة المعلوف فى خدمة المجمع والمكتبة ودار الآثار العربية انحرفت صحته فعاد إلى زحلة فى صيف عام ١٩٢٥ وانصرف إلى تنسيق « الخزانة المعلوفية » وإلى المطالعة والتأليف وتوشيح مخطوطات خزانته بتعليقات ترشد القارئ إلى اسم الكتاب ومؤلفه وعدد نسخه وأماكن وجود كل منها .

قصة طريفة :

فى حديث أفضى إلىّ به الأستاذ المعلوف فى صيف عام ١٩٣٥ بزحلة ونشرته جريدة « فلسطين » اليافية روى قصة انتخابه عضواً فى « المجمع العلمى العربى » بدمشق دونك خلاصتها :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها قصد العلامة المعلوف دمشق بدعوة من أصدقائه العاملين فى الحقلين القومى والثقافى . وذات يوم زار المحقق المعلوفى الأمير زيد بن الحسين « بوصفه نائباً عن شقيقه

الملك فيصل الأول » فاستقبله الأمير الهاشمي بمجالي التقدير والرعاية ، وكان قد سمع بآثاره القلمية ومؤلفيه « دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف » و « الأخبار المدوّنة والمرويّة ، في أنساب الأسر الشرقية » من المرحوم عيسى العيسى ، سكرتير الملك فيصل بن الحسين . وبعد أن رحب الأمير زيد به ابتدره بقوله :

« ماذا تعرف يا أستاذ عن الأمير (قتادة) رأس أسرتنا الهاشمية ؟

فأجابه المعلوف بقوله :

« إن الأمير " قتادة " هو رأس أسرتكم الهاشمية ، وكانت له حظوة كبرى لدى الخلفاء العباسيين ، فاستقدمه يوماً إلى بغداد "المتوكل على الله " فشخص إليها بموكب حافل من رجاله حتّى قرب من النجف الأشرف فلاقاه رهط من كبار حاشية الخليفة العباسي وقد نهدوا لاستقباله والترحيب بقدومه !

ولمح الأمير قتادة عن كثب أسداً مغلولا بالسلاسل ، يقوده أحد كبار القواد فلمعت عيناه ببريق قادح . وصاح بحاشيته :

عودوا بنا !

عودوا بنا !

والله لن أدخلها [1] !

والله لن أدخلها !

---

(١) يعني مدينة بغداد .

إن بلاداً تذلّ فيها الأسود !

والله لن أدخلها ! »

فعاد الأمير " قتادة" أدراجه وعجب رسلُ الخليفة من رجوعه وعادوا على جناح السرعة يطلعون الخليفة على ما حدث ، فكتب هذا إلى الأمير الهاشمى مستجلياً سبب عودته وقد شارف تخوم بغداد ! !

تلقى أمير مكة رسالة الخليفة فأجابه برسالة — لم نعثر عليها برغم كثرة البحث — لكننا ظفرنا بالأبيات التى ذيل بها ردّه وهى :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة ولو أننى أعرى بها وأجـــوعُ

ولى كفّ ضرغام إذا ما بسطتها بها أشترى يوم الوغى وأبيــعُ

معوّدةٌ لثم الملــوك لظهــرها وفى بطنها للمجدبين ربيع !

أأتركها تحت الرهان وأبتغى بها بدلاً ؟ إنى إذاً لرقيــعُ !

وما أنا إلا المسكُ فى أرض غيركم أضوع وأما عندكم فأضيعُ ! ! »

وهنا تهلل وجه الأمير زيد لهذه القصة الرائعة ونهض مقبّلاً شاربى الأستاذ المعلوف ، وفى اليوم التالى صدر مرسوم ملكى بتعيين العلامة المعلوف عضواً فى « لجنة الترجمة والتأليف » التى استحالت فيما بعد إلى « المجمع العلمى العربى » فخدمه المعلوف خدمات جليلة وزوّد متحفه بآثار نفيسة نادرة المثال .

(د) فى المجمع العلمى اللبنانى :

وفى سنة ١٩٢٧ قرّر المجلس النيابى اللبنانى إنشاء « المجمع العلمى اللبنانى »، وفى آذار ١٩٢٨ عقد المجمع أولى جلساته وانتخب الشيخ عبد الله البستانى رئيساً له ومن أعضائه : عيسى إسكندر المعلوف ، الشيخ مصطفى الغلاييني ، وديع عقل ، محمد جميل بيهم ، الشيخ إبراهيم المنذر ، الشيخ أمين تقى الدين ، إلياس فياض ، بشاره عبد الله الخورى « الأخطل الصغير » .

وفى ٢٨ تشرين الأول من عام ١٩٢٨ انتخب وديع عقل صاحب جريدة « الراصد » البيروتية رئيساً للمجمع خلفاً للشيخ عبد الله البستانى وفى ١٨ تشرين الأول من عام ١٩٢٩ انتخب المجمع محمد جميل بيهم رئيساً له خلفاً لوديع عقل ، وفى ٣ شباط من عام ١٩٣٠ صدر مرسوم بإلغائه وشطبت مخصصاته بداعى التوفير .

(هـ) مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

وفى عام ١٩٣٣ انتخب المعلوف عضواً فى « مجمع اللغة العربية [١] بالقاهرة »، وفى عام ١٩٣٤ يمّم القاهرة واشترك مع زملائه فى إعداد العدة

---

(١) تألف هذا المجمع عند تأسيسه من السادة :
محمد توفيق رفعت (رئيساً) وحاييم نحوم ، والشيخ حسين والى ، والدكتور فارس نمر ، والدكتور منصور فهمى ، والشيخ إبراهيم حمروش ، والشيخ محمد الخضر حسين ، وأحمد العوامرى =

لإصدار مجلة هذا المجمع وواظب على حضور جلساته وخدمه بغيرة وإخلاص وكتب فى مجلته مقالات طريفة تدل على عمق تفكيره وأصالة رأيه ، وله على صفحاتها مناظرات لغوية مع نفر من زملائه حول الألفاظ والمصطلحات الملائمة لذوق هذا العصر وقواعد البيان فى الفصاحة والرشاقة من مفهوم العامة .

(و) فى مجمع البرازيل :

وفى مطلع عام ١٩٣٦ انتخب « مجمع البرازيل للغة والتاريخ والآداب » بمدينة ريودى جنيرو الأستاذ المعلوف عضواً فيه ، وهذه ترجمة المرسوم الذى تلقاه المترجم له من الرئيس الدائم للمجمع البرازيلى :

ببالغ الغبطة أحيط الألمعى الرفيع القدر علماً بأننا ، باقتراح من عضو المجمع السنيور (فنترولى[1] سوبرينيو) انتخبنا سيادتكم عضواً مراسلاً لمجمع البرازيل للغة والتاريخ والآداب فى ريو دى جنيرو لدى « المجمع العلمى العربى » فى دمشق و « المجمع العلمى اللبنانى » فى بيروت و « مجمع اللغة العربية » فى القاهرة ، هذه المجامع العلمية التى أنتم عضو

=على الجارم ، الشيخ أحمد على الإسكندرى ، الأستاذ هـ أ . ر . جب ، الدكتور أ . فيشر ، الأستاذ أ . نلينو ، الأستاذ م . ماسينيون ، الأستاذ أ . ج . فنسنك ، محمد كرد على ، الشيخ عبد القادر المغربى ، الأب أنستاس مارى الكرملى ، عيسى إسكندر المعلوف ، حسن عبد الوهاب (أعضاء) .

(١) أمير شعراء البرازيل ومترجم ملحمة « على بساط الريح » للمرحوم فوزى المعلوف إلى اللغة البرتغالية .

فى كل منها ، ولدى شعوب هذه المجامع .

وبانتظار ما تقررونه بالمركز المرموق المكانة الذى ميزكم به مجمعنا نرجو من سيادتكم إبلاغ قرارنا هذا للمجامع العلمية الآنف ذكرها ، وفى طيه نسخة (طبق الأصل) عن مرسوم تعيينكم هذا لإيداعها تلك المجامع .

وتفضلوا بقبول أصدق التحيات وموفور الاحترام من زميلكم المعجب بكم :

أمادو . ر . بوربير

روهان

وفى عام ١٩٣٧ عُيِّن العلامة المعلوف عضواً فى المؤتمر العام للأدب العربى فى تونس ، لكن انحراف صحته لم يمكنه من حضور جلساته .

كانت تربط المعلوف بالمجامع العلمية وأعضائها البارزين فى أوربا وأميركا وبأعلام المستشرقين[١] صلات من الود والتقدير وبينه وبين أكثرهم مراسلات قيمة ومساجلات أدبية ولغوية وزاره الكثيرون منهم ووقفوا على مخطوطات « الخزانة المعلوفية » ومؤلفاته وكتبوا عنها الشيء الكثير كما كتب عنهم فى مجلته (الآثار) وفى غيرها من المجلات والجرائد العربية .

---

(١) نشر المستشرق الألمانى ج . كمفماير ترجمة العلامة المعلوف فى مجلته « معرض الأفكار الشرقية » — مجلد عام ١٩٢٨ .

وكيف لا تعرف البرازيل قدر هذا النابغة المحقق ، فتسند إليه عضوية مجمعها ؟ وفيها سطع نجم « فوزى » وفى أجوائها تفتّقت قريحته ؛ ومن شواطئ كواروجا (ريودى جنيرو) امتطى فقيد الأدب العالمى طيارة فى صيف ١٩٢٦ ولما انحدر منها نظم الملحمةالفريدة (على بساط الريح [1]) التى يحسبها أدباءُ العالم العربى ورواد الإنسانية ثروة نفيسة لا تعدلها ثروة ، برائع ديباجتها وسامى مغزاها ومرهف خيالها . وطبعت هذه الملحمة بالعربية والإسبانية والبرتغالية بصور ملوّنة وترجمت إلى اللغات الحية التالية :

١ — إلى الإسبانية : بقلم كبير شعراء الإسبان فرنسيسكو فيلاسباسا عام ١٩٣٠ .

٢ — إلى البرتغالية : بقلم كبير شعراء البرازيل فنتوريلى سوبرينو ، عام ١٩٣٠ .

٣ — إلى الإنكليزية : بقلم المستشرق جورج كرفث الموظف فى المتحف البريطانى بلندن .

٤ — إلى الفرنسية : بقلم الأستاذ أسعد محفل الدمشقى الأصل .

٥ — إلى الألمانية : بقلم : المستشرق الألمانى ج . كمبفماير ونشرها فى

---

(١) من الغريب أن الشاعر المرحوم إلياس فياض ، عند ما جاء زحلة لإلقاء مرثاته فى المرحوم « فوزى » رأى ملحمة « على بساط الريح » بطبعها النفيسة فأعجب بها وقال لوالد « فوزى » العلامة عيسى إسكندر المعلوف : « إننى أقبل عن طيب خاطر أن أموت بناقص ثلاثين عاماً من عمرى ويطبع لى مثل هذا الأثر الخالد ! » .

ولم يمض على إلقائه مرثاته بضعة أسابيع حتى فقد فيه الأدب العربى المعاصر شاعراً كبيراً.

مجلته « معرض الأفكار الشرقية » ببرلين .

٦ — إلى الروسية : بقلم : المستشرق الروسى كروتشوفسكى (مع قصائد أخرى) .

٧ — إلى الرومانية : بقلم : الأستاذ إميل مرقده الدمشقى الأصل .

٨ — إلى الفرنسية : بقلم : الدكتور فايز عون ، قدمها « أطروحة » لجامعة باريس لنيل (الدكتوراه) .

٩ — إلى الإنكليزية : بقلم ، الدكتور فؤاد عقل ، نزيل نيويورك .

١٠ — إلى الفرنسية : بقلم : السيدة إفلين بسترس ونشرتها فى مجلتها (فينيقيا) التى كانت تصدرها فى بيروت .

١١ — إلى الفرنسية : بقلم : الأستاذ فوزى سعيد ، نزيل بيروت .

تأمل أيها القارئ مكانة هذا الشاعر النابغ ، الذى ضمّت رفاته ربوع البرازيل ، وحنتْ عليها أفياء « سان باولو » ومكانة شقيقه الشاعر المجدد « شفيق » الذى بهر الأدباء بروائع منظومه وعلى الخصوص ملحمة « عبقر » .

* * *

من أبرز صفات العلامة عيسى إسكندر المعلوف التى يذكرها زملاؤه فى المجامع العلمية وعارفو فضله من الأعلام الأخيار فى الشرق العربى قلة الكلام على نفسه ، وبُعده عن الفخر بجهوده ، وتحاشيه الإشادة بنبوغ أنجاله وآثارهم . ويرى من العار الأخذ بأقوال الكاتب النمساوى الشهير

ماكس نوردو القائل : « لا تذكرْ نفسك إلا بالخير ، ولا تقفْ فى هذا عند حدّ ، بل عظّمْ نفسك، وترنمْ بالثناء عليها ، واسردْ مناقبها ومآثرها واستعمل لذلك جهدك من الفصاحة والخلابة ، وأضف إليها أفخم الصفات وأضخم النعوت . واعلم أن سواد الناس لا طاقة لهم على التمييز والحكم ، فاحكم لهم أنت ، وليكن ظهورك بينهم بجلبة يسمعها الأصم ويبصرها الأعمى ! » .

كان المعلوف بعيداً عن الدعاوة لنفسه وتأطير اسمه بهالة من المجد ، وكان محبًّا للسلم ، عازفاً عن الشر ، وعاش دهره طيب القلب ، حسن السريرة وآيته فى حياته قول الشاعر :

وإنى لألـقى المـرء أعلم أنه عدوٌّ وفى أحشائه الضغن كامنُ
فأمنحه بشراً فيرجـع قلبـه سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وتميز ، عليه رضوان الله ، باعتزازه بعربيته ، وغيرته على عروبته ، وتهيامه بالبادية وبما أنبتت من رجال أعلام ، وكانت أحبّ (صورة) للصحراء فى نفسه (الصورة) التى وشّتها ريشة الشاعر العربى الكبير معروف الرصافى القائل :

ولـكنْ بزّة البـدوى أبغى فمـن ثوب علىّ ومن عـباءِ
ومن كوفيـة لرمت عقـالاً يكون الرأس منها فى غطاء
فذا زىٌّ يتمّ بـه رجـوعى إلى عيش بسيط ذى هناء !

وأمتع (صورة) للعرب الذين تحدّر منهم ولم يتنكرّ لهم المعلوف ،

(الصورة) التى رسمتها ريشة إمام اللغة العربية الشيخ إبراهيم اليازجى القائل :

لعمرُك نحنُ مصدرُ كلِّ فضلٍ وعن آثارنا أخذ الأنامُ
ونحنُ أولو المآثرِ من قديمٍ وإنْ جحدتْ مآثرَنا اللئامُ
فقد عرفَ العراقُ لنا قديماً أياديَ ليس تُنكرها الشآمُ
وفى أرض الحجاز لنا فيوض يسيل لها إلى اليمن انسجامُ
وفوق الأندلوس لنا بنودٌ لهامات النجوم بها اعتمامُ
وسلْ فى الغرب عن آثار فخر لها فى جبهة الدهر ارتسامُ
ولسنا القانعين بذكر هذا وليس لنا بعُروته اعتصام
ولكنّا سنجهدُ فى المعالى إلى أنْ يستقيمَ لنا قِوامُ !

وفى أُخريات أيامه كان ينشد نفسه قول سند بن عنان الأزدى :

وزائرة للشيب حلّتْ بمفرقى فبادرتها بالنتف خوفاً من الحتف
فقالت : على ضعفى استطلت ووحدتى
رويدك للجيش الذى جاء من خلفى !

* * *

« أيها [1] التاريخ ، لقد جاء دورك الآن لتحدّث عن ذلك الكبير

(١) من خطاب ألقاه الأستاذ راجى الراعى فى حفلة ذكرى الفقيد المعلوف بزحلة .

الذى قضى حياته يتحدث عنك !

كان وفياً لك حتى الموت ، فكن وفياًّ له حتى الخلود !

قمْ من بين أجيالك ، وحيِّ ذلك الرحالة الجبار الذى أفنى أيامه ولياليه وهو يتسلّق جبالك ، ويهبط أوديتك ، ويشرب من ينابيعك ، يحيي ما مات منك فى عقول الناس !

أيتها اللغة ، اجمعى ما تشتت فى دولتك من حروف و « ألفاظ » و « معان » وكتب ومخطوط وقراطيس وأقلام وأعلام ، وسيرى بها فى موكب الإكبار وعرفان الجميل إحياء لذكرى رفيقك القديم وبطلك الجندى الأمين ، اجمعى موكبك الجليل لمن أقام لك مجمعاً على كل رابية من روابى الشرق ، وانحنى عليك العمر كله يفتش فى رمالك عن ذهبك الدفين ، وينظم ما انتثر منه عقوداً يحلى بها جيدك فى معرض البيان !

وأنتِ أيتها الأخلاق الرفيعة ، هاتى لنا من عبيرك ، فهذا رجلك ، رجل الوفاء والأمانة والصدق والوداعة والإخلاص ترفّ روحه عليها !

وأنتَ أيها القلم ، لقد ذهب المارد الذى سوّدك فى القراطيس فتمرّد ، تمرّد لماردك ، واذرف مدادك رثاءً ودمعاً !

وأنت يا لبنان ، هات لعلاّمتك العَلم ، عَلَم مجدك ، وقل لينابيعك أن تسقى تراب ساقيك الذى أصبح اليوم ظمآن ، وخذ من صخورك الشماء صخرة لضريحه لترفع عليها الأمة تمثالاً !

وأنت أيها الموت ، أنت الكريم الذى يوزع هداياه أكفاناً ، إن حفنة ترابك لن تخفيه عنا ، إن ذكراه أقوى منك !

أعدّه الله لقمّة من قمم الشرق ، فمشى إليها بشجاعة نادرة وصبر عجيب ونصب عليها علمه الخالد !

كان حس المجد فيه ، مجده الأدبى العلمى عميقاً قوياً ، وكانت له أطماع بعيدة المدى ترتدى غير هذه الأثواب التى يرتديها الفاتحون ! »

الفصل السابع

جملة القول في المعلوف

وهبَ عيسى إسكندر المعلوف حياته للمعرفة . غير وانٍ ولا ممسك ، ونقش[1] بيده ، وكتب بحبره البنفسجي ، الذى خطّ به جميع ما كتب ، اسمه على صفحة المعرفة فى شرقنا المنبعث ، المتمطى ، المستقبل دورة جديدة مبدعة من دورات تاريخه العريق ، فليس فى وسعنا أبناء الحياة الدنيا أن نسبغ على ذكره حياة لم يطبعها هو بطابع البقاء ، بما وهبها ووهبنا من حبات قلبه . وأنوار عينه . ولمعات فكره ، وخطرات قلمه !

إن ذكرى المعلوف حية ، لأنه أخذ من معين الحياة الأسنى أضواء ألقاها على دروب مظلمة ، ولأنه أدرك أن أفضل انتفاع بالحياة إنما هو أن تبذلها فى سبيل شىء يبقى بعد أن تزول !

كان شيخنا فئة من هؤلاء الباحثين ، مجتمعة فى بردى رجل فرد ، وكان مؤرخاً ذا أصالة ، لأنه خرج على النهج المألوف فى زمنه ، من عدّ التاريخ سرداً وحسب ، لأسر مالكة توالت ، ومعارك وقعت ، إلى

(١) (مع الطليعة) : فؤاد صروف .

استكشاف نواحٍ من تاريخ المشرق والعرب وبخاصة لبنان ، من دراسة المخطوطات القديمة والعناية بجمعها وتحقيق ما تيسَّرَ تحقيقه منها ، كما فعل فى تدقيقاته المنشورة فى مجلة « النعمة » ومجلة « المجمع العلمى العربى » فى دمشق ، وفى كتابيه « نفائس المخطوطات و « خزائن الكتب العربية » ولأنه عمد إلى دراسة طائفة من أسماء القلاع والحصون فى سورية ولبنان ، جامعاً فيها بين معرفة الآثار القديمة واللغات القديمة والروايات المتواترة المنشورة والمنقولة ، مستبيناً المعانى التاريخية فى الأسماء والأساطير الخرافية وآثار العبادات القديمة وأماكنها وأبنيتها وهياكلها ، وذلك بتحليلات وصفها بقوله : « توافق التاريخ والعقل ولعلى كنت على هدى » وقد عنى علاوة على ذلك بتاريخ الأسر اللبنانية والشرقية فسيرها ، أُسراً وأعلاماً ، مادة زاخرة بحقائق التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والفكرى ، كما فعل فى كتابه « دوانى القطوف فى تاريخ بنى المعلوف » وكتابه « الأُسر العربية المشتهرة بالطب وأشهر المخطوطات العربية الطبية » و « الغرر التاريخية فى الأسر اليازجية » وغيرها ، وأخيراً فى كتابه «الأخبار المدوّنة والمروية ، فى أنساب الأُسر الشرقية » الذى لم يزل مخطوطاً فى مجلدات كثيرة وعسى أن ينشر فى القريب القريب !

إن رجلاً يقضى ستين سنة أو تزيد ، يبحث ويحقق ويؤلف ويحاضر وينشر ، ويخزن ما لا يتاح نشره ، ثم يبيحه للباحثين الذين يلونه ، كما فعل فى المئات الخمس من مجموعة مخطوطاته التى اقتنتها مكتبة الجامعة

الأميركية ، ويشترك اشتراكاً فاعلا حصيفاً فى ثلاثة مجامع علمية فى دمشق وبيروت والقاهرة ، فيشهد دوراتها ، ويسهم فى مناقشاتها ومنشوراتها ، ويصدر مجلة (الآثار) ويكتب لمجلة «المقتطف» وغيرها — لهو حقاً رجل من الأقيال ، ولو هو قصر الجهد على ناحية واحدة من هذه النواحى الكثيرة ، لكان خليقاً بكل إعجاب . أما وقد جمع بينها وأحسن العمل ، وإن تفاوتت قيمته العلمية ، ففى وسعنا أن نقول ، دون أن نعدو الحقيقة أو أن نبالغ فى وصفها ، إن عيسى إسكندر المعلوف كان مؤرخاً كبيراً ، فى فترة من نهضتنا الحديثة كنا فيها فى أشدّ الحاجة إلى مثل عمله الجامع المنبه ، فقد اتصل من ناحية بالكبار من المؤرخين العرب القدامى وجرى على نهجهم ، وكان من ناحية أخرى طليعة جيل جديد من المؤرخين على النهج العلمى الحديث ، فجاس أمامهم ، فى دراسة الوثائق والأصول والآثار واللغات والعادات ، دروباً ضيقة وعرة ، أخذت تتسع اليوم وتعبّد ، فكان محافظاً ورائداً فى آن ! » .

كان المغفور له عيسى إسكندر المعلوف منارة وضاءة ، وذخيرة زاخرة ، وبديهة حافزة ، وخزانة عامرة ، وكان سادناً من سدنة (الضاد) صان بيانها ، وأسهم فى نشر أدبها ، وجلا تاريخ قومه فى المشرق والمغرب العربى !

« الناس [1] بمعظمها لا تدرك هول المصاب الذى ألمّ ببلادنا وقومنا ،

---

(١) (أوراق لبنانية) : مجلد ١٩٥٦ . يوسف إبراهيم يزبك .

بوفاة المؤرخ العظيم أستاذنا عيسى إسكندر المعلوف ، ذلك لأن الناس ، بمعظمنا ، تجهل حقيقة وضعنا فى عالم التاريخ ، وتجهل أن فقيدنا كان . وحده تاريخاً وخزانة ومعلماً وصلة ، وشعاراً و بناء .

لا نعلم متى يكون للبنان — عيساه — الآخر ، ولكننا نعلم أن خسران لبنان . فى وقتنا الحالى هذا — الحجة — فى بسط ماضيه ، إنما هو خسارة لا تعوّض !

وإلى أن تشعر الدولة بأنها مسئولة ، وجدانياً وقومياً ، عن قضايا تاريخنا الوطنى — أعنى : إلى أن ينعم الله على لبنان برجال لا يخجلون بتاريخ آبائهم وجدودهم ، فتراهم يعنون به ويرعون مقوماته — إلى أن تأتى هذه المرحلة المنشودة التى نجهل ساعتها : سيظل الأستاذ العظيم عيسى إسكندر المعلوف دعامة التاريخ اللبنانى ، له ، ولتلاميذه وحدهم — شرف العمل فى بناء الوطنية اللبنانية الصحيحة !

إن مئات الكنوز التاريخية التى اكتشفها فقيدنا الجليل ، وألوف الأحداث الغامضة التى جلاها بمعرفته النيّرة الخصاب ، تشمخ باسمه منارة فضل ، إلى الأبد ، فقد عمل ستين سنة ناضجة فى إنقاذ الأسانيد والمخطوطات . وتلك الألغاز والأحاجى ، وطاف بالأديار والقرى والبيوت القديمة فى مرتفعات القمم وسفوح الأودية ، حتى جمع ما استطاع جمعه من أصول ، ما كنا لنعرف محتوياتها المجهولة القيمة لولا غيرته على سمعة وطنه !

عاش العلامة عيسى إسكندر المعلوف عيش القديسين في تأدية رسالته : أميناً صادقاً ، وفيًّا مؤمناً ، صابراً ثابتاً ، فقليل على قومه أن يرفعوا له تمثالاً من الماس ، يمرون به صباح مساء ، لينحنوا أمامه إجلالا ، ويقبّلوا التراب الذي ارتفع تمثاله عليه ! » .

ولئن هوى هذا النسر من سامق عليائه ، لقد ظلت شهرته خفاقة خفوق العَلَم ، خالدة خلود الهرم ، وستظل آثاره القلمية « تفرى الدجى بشعاعها الجوّال ! » وستظل ذكراه حية بأنجاله ، النسور المحلقة في جواء الأدب العربي المعاصر !

وجملة القول في العلامة عيسى إسكندر المعلوف أنه « موسوعة » ضخمة ، عبّ من معينها الثر جيلٌ من الأدباء تزعمَ النهضة الفكرية بحقّ ، وألّف عشرات المجلدات في آداب العرب وعلومهم وتاريخهم ، ودعا إلى التغنى بكفاءات وأقدار السلف الصالح وتراثهم ، والاعتزاز بما أضفوا على « الخزانة العربية » في شتى ألوانها من ثقافة وعلم وفنّ !

كان عيسى إسكندر المعلوف ملكاً لنفسه ، لكنه بعد أن لحق بربه ، أصبح ملكاً للتاريخ !

الفهرست

صفحة

من آثار المؤلف

١ ــ عرس ومأتم (اقــرأ) صدر فى عام ١٩٥٩

٢ ــ البستانى وإلياذة هوميروس صدر فى عام ١٩٦٣

٣ ــ عيسى إسكندر المعلوف ــ المؤرخ الموسوعى الأديب صدر فى عام ١٩٦٩

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

عيسى إسكندر المعلوف

المؤرخ الموسوعى الأديب

كتاب تناول فيه المؤلف سيرة شيخ مؤرخى العرب المعاصرين عيسى إسكندر المعلوف ، عضو المجامع العلمية واللغوية فى دمشق وبيروت والقاهرة والبرازيل ، وصاحب المصنفات الشهيرة ، وفى طليعتها « الأخبار المدونة والمروية فى أنساب الأسر الشرقية » ، وهى الموسوعة التى تقع فى ١٤ مجلداً . . كما تناول المؤلف فى هذا الكتاب جهاد المترجم له ، مدة ستين سنة أو تزيد ، يبحث ويحقق ويؤلف ويحاضر وينشر ويخزن ما لا يتاح نشره ، ثم يبيحه للباحثين . . .

١٥١١٤